عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 87 / 1 شباط 2017

عدسة من دير الزور
خاص عين المدينة

Ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

الافتتاحية

هدنة زائفة!

حسناً... تُستثنى المناطق التي تسيطر عليها داعش، في محافظة دير الزور والرقة وبعض ريف حلب، من الهدنة، ويظل ساكنوها عرضةً لتنويعة واسعة من أصناف الأسلحة، حسب المضاربة العالمية لمحاربة الإرهاب ووكلائها المحليين. كما تُستثنى محافظة إدلب ريفاً ومدينة، بسبب تداخل وجود الفصائل هناك مع قوّات ومقرّات وسيارات جبهة النصرة... فتح الشام... إلخ. وتخرج مناطق ريف دمشق من الهدنة، في وادي بردى الذي طاله التهجير مؤخراً وفي جبهات الغوطة، لأن حزب الله والفرقة الرابعة يريدان ذلك. وتُستثنى مناطق من ريف حلب من الهدنة بناءً على رغبة النمر، وريف حمص الشماليّ بمبرّرٍ أو دون مبرّر، وأرياف حماة لأنها جبهات!

ما الذي يبقى من الهدنة إذاً! وما مغزى مؤتمر الأستانة! وما هو دور «الراعي الروسيّ» وشريكيه! بل ما معنى اختلافنا نحن حول الهدنة والمؤتمر والحل، وصولاً إلى الصدام بالأسلحة الثقيلة وتطاير التصريحات حول استئصال هذا الفصيل أو ذاك. ألا نهادن بعضنا على الأقل؟!

لا يكشف المشهد السابق تضارب مصالح معسكر أعدائنا، وتشرذم معسكرنا، فحسب؛ بل يلقي الضوء على مقدار «هواننا على الناس». تتدخل روسيا عسكرياً متى شاءت، وتعلن انسحاباً كاذباً متى شاءت. تخلع ثوب الخصم وترتدي عباءة الحكم وتصبح راعيةً للحلّ بين «الأطراف» بينما طيرانها لا يزال يعربد في الجوّ. ويضطرّ بعضنا، بسبب قلة الحيلة وضعف القدرات، إلى التظاهر بالتصديق والذهاب إلى المؤتمر المزعوم، فيخالفهم آخرون لا يرون في غير السلاح سبيلاً، تجاه أعدائهم ورفاق صفّهم على السواء، فتنطلق النيران ويسيل الدم.

لم تكفِ السنوات الستّ المنصرمة لنمسك بمفاتيح القوة؛ العسكرية والسياسية والعلاقات الدولية المثمرة، ولا يبدو أننا سنتعلم ذلك في المستقبل المنظور. فهل سنستمرّ في التذمر من أن أمرنا لم يعد في يدنا منذ زمنٍ طويل؟ وهل سيدعو بعضنا إلى مقاومة الحلّ الدوليّ الذي أخذت معالمه تتشكّل مع إدارة ترامب؟

القرار المستقل من حقنا، كما الحرية والكرامة والعدالة، ولكن أثمان هذه الحقوق باهظة. وكلما أسرعنا في استيعاب الدروس القاسية كلما وفّرنا المزيد من الألم والدمار على أهلنا وبلادنا... فهل نفعل؟

3 من فتح الشام إلى تحريرها

5 معارك دير الزور الأخيرة والإعلام

6 الأيام السود الثقيلة في قرى الشعيطات

9-8 زيارة إلى بيتي المحتل في حي سيف الدولة

10 الدعارة في حلب

14-13 داعش الجنوب أو جيش خالد بن الوليد

15 ترامب الذي قال وفعل

19 الحرية لقائد شبيحة سلحب

من فتح الشام إلى تحريرها
تربح الجبهة وتمضي في أزمتها

سعد عبد الباري

أطلقت جبهة فتح الشام، في 23 من الشهر الفائت، سلسلة هجماتٍ ضد جيش المجاهدين في ريفي حلب وإدلب، لم تلبث أن تطورت لتطال ألوية صقور الشام وجيش الإسلام، ولم تتوقف إلا بولادة جسمٍ جديدٍ سمّي «هيئة تحرير الشام».

سبقت الهجوم حملةٌ دعائيةٌ اتهمت الفصائل المشاركة بمؤتمر الأستانة، المنعقد مؤخراً، بالتآمر ضد جبهة فتح الشام. وتداول مقاتلو الجبهة على نطاقٍ واسع «معلوماتٍ» عن تجسّس جيش المجاهدين وفصائل أخرى لصالح التحالف الدوليّ، وإرشاد طائراته إلى مقرّات الجبهة وقادتها. وكثف شرعيون من الجبهة، جالوا على كتائب الجيش الحرّ الأخرى في ريف حلب الغربيّ حيث يتركز انتشار جيش المجاهدين، نصائحهم لهذه الكتائب بالوقوف على الحياد. ورغم إعلان قادةٍ من «المجاهدين» عزمهم التصدي لجبهة فتح الشام قبيل الهجوم، إلا أن سيطرتها الكاملة تقريباً على مقرّات الجيش ومستودعات سلاحه وذخيرته لم تستغرق أكثر من يومين، ودون رصاصةٍ واحدة. بالرغم من عديد «المجاهدين» بنحو ألفي مقاتلٍ تقريباً، خاضوا أشرس المعارك خلال ثلاث سنواتٍ ضد قوات الأسد، وضد تنظيم داعش في معارك طرده من حلب أول العام 2014، ما يدل على انخفاض الروح المعنوية واضطراب صفوفهم بعد خروجهم من مدينة حلب. في الساعات الأولى للهجوم روّج إعلاميو جبهة فتح الشام أنباءً كاذبةً عن استسلام «المجاهدين» وإعلان حل جيشهم وخسائرهم الفادحة التي ملأت الشوارع بالجثث، وصدّقها إعلاميون آخرون وشيوخٌ مستقلون وقادة، الأمر الذي لعب دوره في اشاعة «رعب» تعتمده فتح الشام لتحقيق انتصاراتها. وراج في غرف الأخبار أيضاً نبأ إصابة قائدٍ محبوبٍ ومعتدلٍ في فتح الشام، هو أبو سعيد راس الحصن، باستهداف سيارته قرب سرمدا، لشدّ محبيه في صفوف الجبهة إلى المعركة.

وعرَضاً اتسعت المواجهات لتشمل ألوية صقور الشام، إذ عرقل حاجزٌ للصقور قرب مدينة كفرنبل في ريف إدلب مرور رتلٍ للجبهة، فانطلقت الهجمات والهجمات المضادة بين الطرفين في جبل الزاوية معقل الصقور. وأعلن قائدهم أبو عيسى الشيخ الحرب على الخوارج والبغاة، معتمداً على اتفاقٍ سابقٍ مع خمسة فصائل أخرى هي: حركة أحرار الشام، وجيش الإسلام، وجيش المجاهدين، وتجمع فاستقم كما أمرت، والجبهة الشامية، على الدفاع المشترك إن تعرض أيٌّ منها لعدوانٍ من أي طرف. وجاء إعلان الأحرار، وهم القوة الرئيسية في هذا التحالف، أنهم قوة فصلٍ وليسوا طرفاً في النزاع، ليحطم عزمه في مواجهة الجبهة ويدفعه إلى التراجع عن موقفه. ومكن موقع جيش الاسلام الحصين، أعلى جبل بابسقا قرب بلدة سرمدا، مقاتليه من الصمود والدفاع عن أنفسهم، حتى ولادة هيئة تحرير الشام، المخطط لها مسبقاً قبل المواجهات، وإعلان قائدها، هاشم الشيخ، وقف إطلاق النار.

ضمت هيئة تحرير الشام، إلى جانب الجبهة، كلاً من حركة نور الدين الزنكي، التي يقدر عدد مقاتليها بـ(2500) تقريباً -باستثناء مجموعةٍ منهم في مدينة اعزاز معظم عناصرها من بقايا لواء عاصفة الشمال- وجزءاً من جيش السنة بـ(300) مقاتل، يتحدر معظمهم من مدينة حمص، ولواء الحق (200) مقاتل المتمركز في بلدة تفتناز بريف إدلب، وجبهة أنصار الدين أو ما تبقى منها بـ(200) مقاتلٍ تقريباً. وإلى جانب الجماعات السابقة، يعد مقاتلو الحزب الإسلامي التركستاني ومجموعات الأوزبك والقوقاز أعضاء عمليين في الهيئة أو حلفاء دائمين لها على الأقل. وجاء الأمير السابق لحركة أحرار الشام، أبو جابر الشيخ، وقائدها العسكريّ السابق أبو صالح الطحان، بحوالي (1000–1500) مقاتلٍ منشقين عن الأحرار. فيكون مجموع ما أضيف من مقاتلين إلى فتح الشام لتشكل «هيئة التحرير» (5000) مقاتلٍ تقريباً.

لن تجعل هذه الأرقام الحركة الوليدة في المرتبة الأولى عددياً بين الفصائل، لكنها ستجعلها حتماً القوة الأكثر تأثيراً، لا سيما بعد أن تنجح الجبهة في صبغ المنضمين الجدد إليها بطابعها الخاص، وبعد أن تطلق عملاً عسكرياً جديداً ضد قوات الأسد يرجح أن يكون في وقتٍ قريب، لمحو صورتها «الباغية» (التي تكاد أن تمحى منذ الآن في أوساطٍ شعبيةٍ تريد وحدة الفصائل بأي طريقة).

ربحت فتح الشام في جولتها هذه، لكنه ربحٌ مؤقت، ستبدّده أزمتها مع العالم الذي سيعدّها قاعدةً مهما تغير الاسم وتوحدت مع آخرين، وتبدّده حدة الاستقطاب والتحولات القادمة في التحالف المنافس، رغم دوافع الاضطرار التي أسهمت في نشوئه.

مدينة إدلب تنتخب مجلسها المدنيّ

سماح الخالد

لقاءاتٌ تعريفيةٌ واجتماعاتٌ تحضيريةٌ يعقدها المجلس المدنيّ المنتخب لمدينة إدلب، في خطوةٍ جديدةٍ من نوعها تهدف إلى تنظيم وهيكلة الشؤون الإدارية، بعد عامين تقريباً على تحرير المدينة من قبضة النظام. وذلك لانتخاب المكتب التنفيذيّ المؤلف من رئيسٍ وستة أعضاء، سيتولى إدارة شؤون المدينة بعد تشكيل مكاتبه، ومنها المكتب الماليّ ومكتب العلاقات العامة ومكتب الرقابة ومكتبٌ للهندسة والتخطيط وغيرها.

بعد مشاورات دامت أربعة أشهر بين فعاليات مدينة إدلب، ممثلة بـ«البيت الإدلبي» و«مجلس الأعيان العام» وأعضاء «مجلس المحافظة» وبين إدارة جيش الفتح، تم التوصل إلى مذكرة تفاهم تنصّ على نقل المؤسّسات الخدمية والمدنية إلى مجلسٍ منتخب، خلال مدة ثلاثة أشهر بعد انتخابه، في محاولةٍ من أهالي المدينة تفعيل دور المكاتب الخدمية بشكلٍ أفضل وتطوير خدماتها لتخفيف أعباء الحرب الدائرة في البلاد عن الناس.

وقد عقد رئيس مجلس إدارة إدلب، محمد الأحمد، مؤتمراً صحفياً أوضح خلاله نقاط الارتباط بين إدارة جيش الفتح والمكتب التنفيذيّ التابع للمجلس المدنيّ، وأكد أن إدارة جيش الفتح ستسلم المديريات الخدمية للمكتب التنفيذي بعد انتهائه من ترتيب أوراقه الداخلية وتسمية أعضائه في الرئاسة والمكاتب الخدمية، من خلال لقاءاتٍ واجتماعاتٍ مشتركةٍ بين الطرفين. وأوضح الأحمد أن الفصائل العسكرية والهيئات الشرعية في المدينة ستلعب دور الداعم للمكتب التنفيذيّ لضمان نجاحه واستمرار تقديم خدماته للمواطنين، وستكون هناك إدارةٌ مشتركةٌ بين إدارة إدلب والمكتب التنفيذيّ في مديريات المدينة.

وتمت انتخابات المجلس المدنيّ، بحسب رئيس لجنتها محمد سليم خضر، بشكلٍ منظم ومدروس. ولاقت إقبالاً كبيراً من كافة فئات أهالي المدينة. ووصل عدد المرشحين إلى 80 شخصاً وفق شروطٍ وضعتها اللجنة، كأن يكون المرشّح فوق سنّ 30 ويحمل إجازةً جامعية، بينما بلغ عدد أعضاء الهيئة الناخبة النهائيّ 900 ناخب، ودامت عملية الانتخاب 12 ساعة في يوم 17 من شهر كانون الثاني المنصرم.

وأشرفت على عملية فرز الأصوات 3 لجانٍ استمرّت في عملها يومين كاملين. وهي اللجنة التأسيسية المؤلفة من 5 أعضاء، ومهمتها قبول طلبات الترشح والانتخاب، بالإضافة إلى لجنة مراقبة عملية الانتخاب وفرز الأصوات لتتم بطريقةٍ نزيهةٍ وشفافة، وأخيراً لجنة الطعون المؤلفة من قاضٍ ومحاميين. وبعد الانتهاء من عملية الفرز أعلنت اللجنة التأسيسية فوز 25 مرشحاً نالوا أعلى الأصوات، ليصار في ما بعد إلى انتخاب رئيس المجلس ونائبه وأعضاء المكتب التنفيذيّ منهم.

وبدورها أعلنت لجنة الطعون عن تحديد يوم كاملٍ لاستقبال أيّ اعتراض أو طعنٍ في عملية الانتخاب، إلا أن العمليةً تمت بنزاهةٍ أمام الجميع، ولم ترد أي شكوى أو تشكيكٍ من أيّ طرف، سواء أكان ناخباً أم مرشحاً.

«ما زال أهالي المدينة يشعرون بالخوف بتأثير ما زرعه نظامٌ دام حكمه خمسين عاماً في نفوسهم»، كما يقول عبد القادر الشامي، أحد الناخبين في المدينة، الذي أكد أنه لاحظ في عملية الانتخاب روح الحماس والتسابق بين المرشحين لإبداء آرائهم في ما يصبّ بالدرجة الأولى في مصلحة أهل المدينة وتأمين الخدمات الأساسية، وما هي أبرز المعوقات والمشاكل التي يواجهونها للوقوف عليها والسعي إلى حلها، وذلك من خلال اجتماعاتٍ سبقت الانتخابات، تمت برعاية «البيت الإدلبي»، نوقشت خلالها مهام المكتب التنفيذيّ وآلية عمله في المرحلة القادمة، إضافةً إلى تبادل وجهات النظر بين المرشحين والأهالي وتحديد الأولويات.

يرث مجلس المدينة المنتخب تركةً ثقيلةً في ظل تخلي أغلب المنظمات الدولية عن دعم مشاريع في مدينة إدلب، وضعف الخدمات المقدمة للمدينة، نتيجة السلطة العسكرية التي تفرضها إدارة جيش الفتح عليها، ونتيجة تداول الإدارة كل تسعة شهور لسبعة مكاتب خدميةٍ تقع على عاتقها الخدمات الأساسية في المدينة، وقد نتج عن هذا التداول ضعفٌ كبيرٌ في عمل هذه المكاتب وفوضى وعدم استقرار.

وناشد محمد سليم خضر المنظمات الدولية لدعم المكتب التنفيذيّ في سبيل نجاحه، وبالأخصّ أنه يعتمد في تشكيله على هيئاتٍ مدنيةٍ تسعى جاهدةً إلى الارتقاء بالمدينة من كافة الجوانب الخدمية وتفعيل مؤسّساتها، لتعود عجلة الحياة إليها بمساعٍ حثيثةٍ تعكس آمال أهلها وتحقق الطموحات التي لطالما انتظروها.

معارك دير الزور الأخيرة والإعلام

علي خطاب

دون رصد المتفاعلين مع المعارك الأخيرة يستحيل رصد الهجوم الذي شنّه تنظيم الدولة الإسلامية على مواقع النظام في دير الزور؛ بين 14 و18 من الشهر المنصرم، في ضوء عدم وجود مراسلين حربيين مستقلين يستطيعون نقل ما يجري.

كرة الشائعات المتدحرجة

ينقل المراسلون الأحاديث الدائرة حول المعارك مما يشيعه مقاتلون في التنظيم بين الأهالي، ويعتمد إعلاميون على صفحاتٍ شخصيةٍ أو عامةٍ يديرها مبايعون يعملون في الدواوين المدنية كالزكاة والخدمات، أو عن طريق العلاقات الاجتماعية التي تربطهم بهم. وبطبيعة الحال تخضع تلك الأخبار للمبالغة والتحليل والرغبات، في جوٍّ عامٍّ مليءٍ بالخوف والحقد والأمل والتضامن والترقب، تسيطر عليه رغبةٌ في التخلص من النظام، أو قضائه على التنظيم، أو بقاء الأوضاع على ما هي عليه. وبذلك تصل الأخبار مشوشةً إلى الصفحات الإخبارية والصحف ومراكز البحوث، التي تضعها بدورها ضمن إطار خسائر التنظيم في الموصل والرقة وتقدمه في تدمر، ليصل الأمر في النهاية إلى «احتمال تسليم» و«تكتيكاتٍ جديدة» و«غنائم كبيرة» و«حشودٍ ضخمة» وغيرها من العناوين.

وقفةٌ هادئةٌ مع الأخبار

استأنفت الأمم المتحدة نهاية الشهر المنصرم إلقاء المساعدات لأحياء المدينة الخاضعة للنظام في وقت استعاد الأخير فيه زمام المبادرة في المعارك، وذلك بعد إعلان تعليق إلقاء المساعدات لأسبابٍ أمنيةٍ في أول أيام الهجوم. في تلك الفترة طالب إعلاميون تابعون للتنظيم «بتقوى الله» في نقل الأخبار، بينما أشاد آخرون منهم بوكالات أنباءٍ وصفحاتٍ متحمّسة، لمساعدتها لهم في نقل الأحداث قبل أن تقع، أو جعل هدف الهجوم النهائيّ المفترض واقعاً على الأرض، أو تبني الأخبار أو ابتكارها، كمقتل مسؤولي وقادة النظام مثل المحافظ محمد سمرة والعميد عصام زهر الدين. حتى وصل الأمر إلى التشفي بالمدنيين الخاضعين للنظام، مع توقع مذابح سيرتكبها التنظيم في حقهم، رغم أنه أصدر بياناً منذ سنةٍ ونصفٍ استثناهم فيه من الحرب، فضلاً عن الكثير من موظفي الدوائر الحكومية، بمجرّد التزام بيوتهم، في حال اقتحم الأحياء التي يقطنون فيها.

وكالة أعماق

بطبيعة الحال ستحتفل وكالة أعماق التابعة للتنظيم بأيّ انتصارٍ يحرزه، رغم أن عناصر مشاركةً في المعارك تتكلم عن اللحظات التي يختلسها الإعلاميون المبايعون على عجلٍ بعد أيّ تقدم، حتى لو لم يكتب له الاستمرار سوى لحظات. وقد واكبت أعماق هجوم التنظيم بأخبارها من 14 حتى 18 كانون الثاني، وتحدثت فيها عن (تدمير دبابةٍ وعربة شيلكا ومدفع عيار 57 وحافلةٍ محملةٍ بالجنود و3 سياراتٍ أخرى، وإطباقٍ الحصار على المطار و4 أحياء قريبةٍ منه وعزلها عن باقي الأحياء، والاستيلاء على مكابس القرميد ومشروع الجرية وجبل العمال، والسيطرة على مبنى الكهرباء ورحبة دبابات، وبثت فيديو للسيطرة على مشفى ميداني) ثم خبرين متأخرين في 20 و24 من الشهر نفسه حول (تدمير دبابةٍ في أطراف المقابر، ومدفعين رشاشين في اللواء 137).

المعركة نقلاً عن مشاركين فيها

تكلمت «عين المدينة» في عددٍ قديم عن طبيعة المعارك التي يخوضها التنظيم في دير الزور. ولا يخرج الهجوم الأخير عنها من جهة استعمال التمويه والمفخخات والقصف باتجاه مناطق سيطرة النظام والمجموعات الصغيرة من الانغماسيين والمشاغلة وانتشار نقاط الاشتباك وتشتتها، إلا أن الهجوم الأساسيّ اعتمد محوراً وحيداً في جبل العمال، وهو مجموعة تلالٍ موازيةٍ للنهر من الشرق إلى الغرب اخترقها التنظيم من ثلاث نقاط، عبر 350 مقاتلاً استقدمهم من خارج المدينة:

النقطة الأولى من الشرق مقابل كلية التربية: تسلل إليها عناصره من النقطة الثانية عبر التلال، شرقاً باتجاه مكابس القرميد ومرآب الخدمات وبعض القطع العسكرية المحدثة بين تلك التلال. لكن المهاجمين لم يستطيعوا تأمين خطوط إمدادٍ للمتسللين، ثم فقدوا الاتصال بهم.

الثانية غرباً: من وادٍ بين التلال جنوب حيّ العمال، كان يتسلل إليها عناصر الجيش الحرّ والمصورون، ومنها تسلل عناصر التنظيم إلى النقطة الأولى، ويسّدها جيش النظام بمتاريس وسواتر ترابيةٍ لحماية طريقه العسكريّ الواصل بين الأحياء شرقي المدينة وغربيها، ومنه يؤمّن الإمداد إلى المطار العسكريّ. وما زال التنظيم يتحصن في نقاطٍ يقطع منها -في فتراتٍ متقطعة- ذلك الطريق نارياً.

الثالثة خلف كراج البولمان: عبر فتحةٍ بين التلال جنوب حيّ العرفي، استعملها الأهالي في الحرب للتنقل بين مناطق الحرّ والنظام، واستعملها مقاتلو الطرفين في عمليات قنصٍ وقصفٍ خاطفة. وما زال عناصر التنظيم يملكون فيها بعض النقاط بفعل تضاريسها التي تؤمّن لهم الحماية رغم القصف العنيف.

بالتوازي مع ذلك نفذ التنظيم بعض الاقتحامات والاشتباكات الجريئة بالاعتماد على جيوبٍ متقدمةٍ كان قد استولى عليها في معارك سابقة، كنقاطٍ في جبل ثردة منذ 6 شهور. لتبدو، مع الهجوم الأخير، قضماً بطيئاً للمناطق التي بحوزة النظام، بطريقة عزلها عن بعضها والاستفراد بكلٍّ منها على حدة. على أن المعارك التي استأنفها النظام والميليشيات التابعة له بعد توقف هجوم التنظيم، بمساعدة الطيران الروسيّ، توحي بإدراك النظام خطر هذه الجيوب.

الأيام السود الثقيلة في قرى الشعيطات

همام الحمد

«بدي أخلي السواجي تمشي بالدم بدل المي»

وجرت السواقي فعلاً بالدماء في قرى عشيرة الشعيطات مثلما توعد عبد الرزاق عبد الكحيلات، المعروف بـ«أبو علي الشعيطي»، خصومه من أبناء العشيرة الآخرين. وقعت المذبحة وشرّدت العشيرة منذ عامين ونصف وحتى الآن.

من قرى الشعيطات - خاص عين المدينة

بالتدريج البطيء، وعقب نفي طويل، عاد من بقي من الشعيطات إلى ديارهم، فيما نزح أو لجأ ثلاثة أرباع العشيرة تقريباً هرباً من داعش، ليمسي «شارع القهاوي»، وهو السوق الرئيسيّ المزدحم عادة قبل داعش، شبه خالٍ إلا من مارّة ومتسوقين يقضون شؤونهم بسرعة تحاشياً للمشاكل. وسوى عناصر داعش لا يمكن لأحد أن «يمشي طوله» أو يأخذ راحته في الكلام كما يقول أحمد، وهو بائعٌ سابقٌ في السوق: «أوّلي إذا تبيع تراب ينباع معك وتربح عليه، همّا ما يشتغل بس الأكل والدوا. وصاحب المحل ما يستجري يكثّر بضاعة خايف لا يتشرّد مرة ثانية». استولت داعش على بضائع المحلات وأثاث البيوت وعدّتها غنائم حرب المرتدين، ما اضطرّ الأهالي إلى البدء من الصفر حين عودتهم.

يحرص التنظيم على إشاعة الرعب بتكثيف المداهمات والاعتقالات بذرائع واهية، حتى أصبح الكثير يحدث نفسه ويراجع ذاكرته ليسأل: «هل أنا مطلوب «للدولة»؟ «حدا مخبّر عني إني حاكي عليهم قبل ما يسيطرون؟ والله ما لي شغل لا بثورة ولا بنظام. معقولة هذول الإسلام الصحيح؟». ولأن «الما يخاف من الله خاف منو» تصبح الطريقة الوحيدة لتفادي المشاكل هي الطاعة العمياء، فتطول اللحى وتقصر الثياب وتلحن الألسنة بمفردات الدواعش، ليصير أصغر عناصرهم «شيخاً» يُستجدى وده.

في أي وقتٍ على الحواجز قد يوقَف المارّ ليُسأل عن اسمه ولقبه ومن أيّ فخذٍ عشائريّ، وهل خضع لدورةٍ شرعيةٍ أم لا. يقول صالح (اسم وهمي): «أول ما كنت أمرّ من الحواجز كان قلبي يدق بسرعة من الخوف، مع إني مو مسوّي شي، بعدين صرت أعبّي موبايلي أناشيد وإصدارات وصرت صحبة مع العناصر، ومرّات ياخذون مقاطع مني». منذ ستة أشهر تقريباً عُيّن علي حسين الديري، الذي يطلق على نفسه لقب «أبو عمر الزبيدي» (40 عاماً) مسؤولاً أمنياً في المنطقة، فصارت الحواجز كابوساً يتحاشاه الناس، خاصةً بعد مقتل ابنه وثلاثةٍ من أشقائه في معارك التنظيم. وقد يدفعه مزاجه المتوحش إلى إطلاق النار أو إهانة المارّة لأتفه الأسباب، مثلما فعل مع شيخ مريض تعب من الوقوف الطويل على الحاجز بانتظار أن يسمح له بالعبور، فأسكته بـ«اقعد راحة يا حجي، أحسن ما أقص راسك».

يحاول الناس التكيف وتمرير أيامهم الثقيلة يوماً بيوم، دون أملٍ بفرجٍ قريب. وكلما استقرت الأحوال على نمطٍ من أنماط التعايش أطلق الدواعش حملة ترهيبٍ جديدة، اعتقالاً كانت أم إعداماتٍ علنيةً أو أيّ صنفٍ من صنوف العذاب والقهر اليوميّ الذي يظهر على الوجوه والحركات وفي المفردات المنتقاة بعنايةٍ في كل موقفٍ وحال. حتى أثناء الشجار صار المتشاجرون يحسبون حساب داعش، فخلت صيحاتهم من التعابير الغاضبة التي باتت تقتصر على التهديد بالشكاية إلى شرعيّ التنظيم وحسبته. وفضلاً عن كل هذا تظل آلام المذبحة جاثمةً على الصدور. يقول مصطفى (اسم وهمي): «أمي ما تخلينا ننام، تبكي وتنادي إخواني بأسمائهم بنص الليل. مو مصدقة إنهم ماتوا، مع إنها شافت جثة أخوي وتعرّفت عليه من كلابيته». وبين حينٍ وآخر تصل أنباءٌ كاذبةٌ عن بعض المفقودين أنهم بصحةٍ جيدةٍ وأنهم يسلّمون على أهلهم، يختلقها الدواعش بغاية السمسرة وأخذ الرشى مقابل المساعدة في إطلاق سراحهم. يبشر أبو البراء، وهو مبايعٌ للتنظيم، عجوزاً سألته عن ابنها المفقود: «خالتي لو تنادين بصوتك يسمعونك، تراهم حيل قريبين»، فتفرح الأم المسنّة وتذبح خروفاً بهذه البشرى الكاذبة.

في عهد داعش انقسم مجتمع عشيرة الشعيطات، مثل غيره من المجتمعات في مناطق سيطرة التنظيم، إلى طبقتين؛ الأولى هي عامة الناس الخاضعين دون ممانعةٍ تذكر لقوانين التنظيم وممارسات عناصره المتغطرسة، والثانية هي طبقة المبايعين وذويهم المتملقين لداعش. ويحظى هؤلاء بمعاملةٍ وامتيازاتٍ خاصّةٍ مثل العمل والتنقل -في أراضي داعش- فضلاً عن حمل السلاح وممارسة ما يشاؤون من تسالٍ، كالصيد من نهر الفرات باستعمال الديناميت، والثرثرة على مواقع التواصل الاجتماعيّ على شبكة الإنترنت، وإطلاق النار في الأعراس، وفي أحيانٍ أخرى على الناس كلما غضبوا. مثلما فعل أحد عناصر داعش، ويدعى محمد عبد الرحمن الكركز، عندما أردى رضيعاً في حضن أمه وأصابها بجروح بليغةٍ بحجة مخالفتها للباس الشرعيّ ثم عنادها وشتمها له، وفق ما قال مبرّراً فعله، دون أن يلقى أيّ عقابٍ سوى الإبعاد إلى جبهات القتال.

الجامع الأموي الكبير بحلب خلال الثورة

بناه سليمان بن عبد الملك سنة 717 م. ويعدّ من أبرز المعالم الإسلامية والأثرية في حلب؛ إذ يكتسب أهميةً كبيرةً لا ترتبط بطرازه المعماريّ النادر وزخارفه فحسب، بل بشهادته على تعاقب كثير من الأحداث في تاريخ المدينة والمنطقة. وهو مدرجٌ على قائمة التراث العالميّ.

محمد سرحيل

منذ 2009 وحتى 2011 شهد الجامع نشاطاً علمياً وتطوّراً إداريّاً وماليّاً ملحوظاً انعكس على تحسّن جميع مرافقه، وهي السنوات التي عُيّن فيها د. عبد الله سلقيني والشيخ يوسف هنداوي في إدارته.

عقب اندلاع الثورة شهد الجامع عدداً من الأحداث التي كان من أبرزها أول محاولة للتظاهر داخله بعد صلاة الجمعة في 25 آذار 2011، سُرعان ما قَمَعَها الشّبيحة، وأعقبها على الفور بثٌّ مباشرٌ للإعلام الرسميّ يُظهر خروج «مصلين» كانت قد جلبتهم باصاتٌ خاصةٌ بالاتحاد الوطنيّ لطلبة سورية بصحبة سيارات الأمن، في «مسيرة تأييدٍ عفوية». وفي التاسع من أيلول 2011 خرج من الجامع آلاف المشيّعين في جنازة مفتي حلب د. إبراهيم سلقيني، التي تحولت إلى مظاهرةٍ شهيرةٍ سُجّلت كإحدى أكبر المظاهرات التي شهدتها المدينة.

منتصف آذار 2012، في الذّكرى السنوية الأولى للثورة، شهد الجامع احتفالاً مميزاً، استجابةً لدعوةٍ شاركت فيها جميع تنسيقيات المدينة التي حضرت برجالها ونسائها. ولكن سُرعان ما استحال الاحتفال إلى مشهدٍ دمويٍّ بعد حضور الأمن والشبّيحة، الذين أُغلقوا كافة أبواب المسجد وبدأوا بإطلاق الرصاص على المتظاهرين واعتقالهم.

اعتقال مدير الجامع

من أبرز الأحداث التي شهدها الجامع أيضاً اعتقال مديره الشيخ يوسف هنداوي، صباح الخامس من أيلول 2012، وهو أحد كبار علماء حلب وفرضيّها الأول (علم الفرائض والمواريث). وذلك بعد انتشار عناصر جيش الأسد داخل باحات المسجد وانتهاك حرمته بالتدخين والخمور وأعمالٍ أخرى مشابهة، فأصرّ هنداوي -رغم تحذير المحيطين به- على الذهاب إلى المسجد ومنع هذه التّصرفات، قائلاً: «أنا خادم بيت الله. هذه مسؤوليّتي، وسأبذل ما في وسعي للدفاع عن حرمته المقدسة». وكان ينوي إخراج العناصر بطلبٍ رسميٍّ للأوقاف ونقل النازحين فيه إلى مدرسةٍ قريبة، إلا أنّه اعتُقل أمام الجامع، ومنذ ذلك الحين لا يزال مغيّباً ومجهول المصير.

على خط المواجهات

في الرابع عشر من تشرين الأول 2012 دخل الجامع على خط المواجهة المسلّحة بين الجيش الحرّ وقوات النظام، انتهت بسيطرة الحرّ لبضعة أيامٍ فقط، وأظهرت صورٌ بثّها ناشطون حينها مجوهراتٍ -يبدو أنها مسروقةٌ- ومشروباتٍ كحوليةً بين أمتعة عناصر جيش النظام الفارّين، وتعرّض الجامع إثر ذلك لأضرارٍ جسيمة.

في 24 نيسان 2013 تجدّدت الاشتباكات في الجامع، وكانت الفاجعة باحتراق أروقته ومكتبته الشهيرة، وكذلك سقوط مئذنته الأثرية التي يبلغ طولها 45 متراً. اتّهم النظام حينها لواء التوحيد بالمسؤولية إلا أن الأخير دحض هذه المزاعم في بيانٍ وأكد سقوط المئذنة بفعل القصف المدفعيّ المكثّف من النظام، لينتهي الأمر بسيطرة لواء التوحيد على الجامع بشكلٍ كامل بعد يومين من الحادثة.

نقل الآثار

عقب تحرير الجامع، وخشيةً على تلف آثاره نتيجة الاستهداف المتكرّر من النظام؛ تواصلت بعض الأطراف مع مديريتي الأوقاف والإفتاء التابعتين للنظام في حلب، بهدف دخول مناطق الاشتباك -بوساطةٍ من الجانبين- لحماية وإنقاذ ما يمكن من الآثار، ولكن دون جدوى!

وهنا كان لا بد من إنقاذ ما يمكن نقله من آثارٍ هامة، فتوجّه وفدٌ من مكتب التعليم والثقافة والآثار في مجلس محافظة حلب الحرّة، وقاموا بفكّ المنبر وباب الوالي (الحجرة المجاورة للمنبر)، إضافةً إلى اللّقى الأثريّة التي تقع داخل حجرة زكريا مع الكرسيّ حامل اللّقى، ونُقلت جميعها إلى منطقة الشيخ نجار، أواخر 2014. ومع تقدم النظام في المنطقة أُعيد نقلُها إلى مكانٍ آخر، ولكنها لم تدُم طويلاً في مكانها، فأعيد نقلُها بعد اقتراب داعش. أما الآثار الثابتة فقد وضعت سواتر ترابية عليها لحمايتها بدل نقلها، كالساعة الشمسية والأرضية وهي ما تعرف بالمِزْوَدَة.

سيطرة النظام وميليشيات إيران

منتصف كانون الأول 2016 سيطرت قوّات النظام والميليشيات الإيرانية على الجامع خلال حملتها لتهجير سكان حلب الشرقية، وحينها عاد النظام لاتهام الثوار بسرقة آثار الجامع ونقلها إلى تركيا. وقد التقينا عضو مكتب الآثار سابقاً، عمار طاووز، الذي أكد لنا أنّ جميع الآثار لا تزال محفوظةً في مكانٍ آمن داخل محافظة حلب، وأشار إلى أن جهاتٍ عديدةً عرضت نقل المنبر إلى خارج سورية إلا أنهم رفضوا بشكلٍ قاطع. وأضاف: «آثارنا وحضارتنا نحن من يحميها وخيرُ من يحافظ عليها».

زيارة إلى بيتي المحتل في حيّ سيف الدولة

خاص عين المدينة

ياسمين محمد

على مدخل المبنى الذي غادرته منذ بداية كانون الأول 2016 كان للهواء لونٌ آخر، والأبنية مصبوغة بالسواد بتأثير الحرائق التي افتعلت في المكان، فبدا وكأن بركاناً نشطاً زاره وقذف حمم لهبه كيفما اتفق، مخلفاً آثاره على واجهات البنايات.

لم تكن العودة للاطمئنان على بيتي ومحتوياته متاحةً خلال الأيام الأولى التي قضيتها بعد أن قررت الذهاب إلى مناطق النظام مع بداية سقوط العديد من أحياء حلب الشرقية بيد قوات الأسد. كان خروجي قاسياً ومؤلماً، ولم أعتقد أني سأعيش يوماً آخر بهذه القسوة. تجاوزنا حيّ سيف الدولة باتجاه حيّ بستان القصر، في رحلة ليلية عبر الشوارع المليئة بالموت والقناصة، مشياً وأنا أحمل طفلتي الصغيرة بين ذراعيّ وأجرّ خلفي طفلي الأكبر، تاركةً خلفي زوجي المقاتل في صفوف الثورة منذ بدايتها وبيتي الذي يحوي ذاكرة الأيام الجميلة والحزينة والخائفة، مكتفيةً بحقيبة ثياب صغيرة سرعان ما تخليت عنها نتيجة تعب المشي الطويل.

عند الوصول إلى الجانب الآخر من المدينة كان عليّ البحث عن مكانٍ لأنام فيه أنا وأطفالي. أوصلني سائق التكسي إلى أحد الفنادق في منطقة بستان كليب حيث أخذوا هويتي للتفييش و2000 ليرةٍ إيجار غرفةٍ بسريرٍ واحدٍ ودون تدفئة.

بدأت رحلة البحث عن بيتٍ مفروش منذ صباح اليوم التالي لأتفاجأ بالأسعار، فلا يوجد بيتٌ يقل إيجاره عن 50000 ليرة. في النهاية سكنت في حيّ الأشرفية في بيتٍ غير مفروشٍ بإيجار 20000 ليرة.

بدأت اتفاقية الهدنة وخرج أهالي القسم الشرقيّ من المدينة متجهين إلى الريف الغربيّ. وكانت آخر القوافل قد خرجت ومعها زوجي في 2016/12/22، وبدأ الحديث يتعاظم عن قدرتنا على العودة إلى بيوتنا.

لم أكن أستطيع العودة بشكلٍ نهائيّ. خفت من احتمال اعتقالي أو أن يراني أحد الجيران الذين يعرفون زوجي فيشتكوا لرجال الأمن، ولكني أردت أن أستعيد بعض أغراض بيتي.

في 2017/1/12 اتصل بي أحد أقرباء زوجي الذي قرّر زيارة بيته وسألني إن كنت أود الذهاب إلى هناك. تطلب الأمر أن أستجمع قواي وقرّرت الذهاب معه. في الطريق لم توقفنا الحواجز الكثيرة حتى وصلنا إلى مشفى النور بالقرب من حيّ الزبدية، فأوقفنا أحد الحواجز وسألنا إن كان معنا لتران من البنزين، وحين أجابه قريبي بالنفي قال له: «فهمك كفاية»، فأخذ منا 1000 ليرةٍ وسمح لنا بالمرور.

في الطريق إلى سيف الدولة كان الطريق مليئاً بالسيارات، بعضها خاصةٌ والكثير منها سيارات نقل صغيرةٌ (سوزوكي). كان مئات الأشخاص يمشون في الطريق وكأن الحياة لم تتوقف، دهشت من عدد الناس والزحام، ومنعني خوفي من التدقيق في الوجوه.

عند وصولنا إلى المبنى الذي كنت أسكن فيه نزلت من السيارة وداريت وجهي كي لا يراني أحد الجيران. صعدت درج البناية حتى الطابق الثالث. وجدت بيتي بلا أقفالٍ وعليه جنزير. فتحت الباب بيدي ففتح، ولكن أصواتاً صدرت من الداخل استوقفتني. تراجعت خطوةً إلى الوراء، وطرقت الباب.

كان المشهد صاعقاً حين خرجت إحدى النساء لتفتح لي باب البيت. جمدتُ في مكاني. نظرتُ إلى المرأة التي تقطن في بيتي وأشرتُ إلى ما ترتديه وقلت: «هذا ثوب نومي!» فلم ترد. بعد أن استعدت توازني عرّفتها عن نفسي وطلبت منها أن أدخل إلى البيت لآخذ بعض أغراضي إن سمحت لي. كانت تعاملني ببرود صاحبة البيت. قالت إنها من حيّ القاطرجي وإنها نزحت إلى منطقة جبرين وإن الجيش أعطاها هذا البيت لتسكن فيه بعد أن دمر بيتها وأصبح غير صالح للسكن.

طُفلتها الصغيرة كانت ترتدي ملابس طفلتي أيضاً. برّرت المرأة أنهم وجدوا الثياب في البيت. أثناء بحثي عن أغراضي التي «عفش» معظمها كما قالت المرأة، ولا أعرف إن كانت قد سرقت أم باعتها الساكنة الجديدة؛ وجدت بعض ما تركوه. كانت المرأة تقول كلما أردت أن آخذ شيئاً: «أنت متأكدة أنو هدول الغراض إلك؟»، وأكتفي بهزّ رأسي.

أخذت بعض الثياب والأشياء الصغيرة لأن السيارة التي جئنا بها لا تتسع لأكثر، وقررت العودة في اليوم التالي لأخذ باقي الأغراض. في طريق العودة أوقفنا الحاجز الذي مررنا به بالقرب من مشفى النور ولكنه لم يأخذ نقوداً، ثم أوقفنا حاجزٌ آخر على بعد مئات الأمتار منه ليسألنا عن مصدر هذه الأشياء وإن كان معنا ما يثبت أنها لنا. لم ينفع عقد البيت في إثبات الملكية ولكن كلمة «فهمك كفاية» كانت صك المرور الجديد القديم، ليأخذ 400 ليرةٍ ويتركنا.

صبيحة اليوم التالي كنا قد جهزنا أنفسنا، أنا وقريب زوجي، للذهاب إلى بيوتنا وحمل ما نستطيع مما بقي لنا هناك. كان الطريق مزدحماً هذه المرّة، وسمعت أن الناس يقفون على دور الإغاثة التي ستوزّع هذا اليوم في الحيّ. رأيت كثيراً من الذين أعرفهم، بعضهم كان من الجيش الحرّ، وبعضهم عمل في مجلس الحيّ. شعرت بأرواح الذين استشهدوا تمرّ في الطرقات التي نسير فيها. رأيت مخفر الحيّ ووجه أبو رحمو الذي كان قائده، ورأيت قاعدة مدفع الهاون التي كانت بالقرب من بيتي، ورأيت أعلام الثورة التي لم يُزلها سكان الحيّ الجدد، والشعارات المكتوبة على الحائط. كل شيءٍ كان على حاله، فقط وجوه الناس تغيّرت والبدلات العسكرية التي تملأ الحيّ. تلالٌ من القمامة أيضاً غيّرت ملامح الطريق، لا أعرف من أين أتت ولكنها كانت كثيرة.

كان التفاوض مع الساكنة الجديدة أصعب هذه المرّة. بدأت حديثها بالقول: «مو بيكفي سمعت أنو اللي كان ساكن هون قائد كتيبة وما حكيت». حاولتُ بكل أنواع اللطف أن آخذ بعض أغراضي، فأنا أيضاً نزحت من بيتي وليس عندي ما أنام عليه. أعطتني سجادتين وبعض الأغطية واستطعت أخذ البراد. لم تكن في المطبخ أي أوانٍ، ولا حتى فنجان قهوةٍ من أشيائي القديمة. غرفة نومي وغرفة الجلوس والتلفاز والغسالة كلها كانت قد سرقت. فرضت عليّ المرأة أن أترك باقي الأشياء وهي تقول: «وأنا شلون بعيش؟ خدي شوي وتركيلي هدول».

سائق السوزوكي، الذي أخذ 15000 ليرة سواء «عبّيتي السيارة أو حطيتي فيها كيلو رز»، أكمل طريقه معنا إلى بيت قريب زوجي في حيّ طريق الباب. هناك كانت الحياة شبه معدومة، لم أرَ في الشوارع سوى بعض الأشخاص، الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، يتحركون كالأشباح.

أضاع الرجل بيته لكثرة الدمار والتراب في الطرقات. للحظةٍ وضع يده على رأسه ليتذكر المعالم. أمام شارع المؤسسة، التي دلتنا على الطريق، صعد بنا سائق السوزوكي ليجد الرجل بيته قد تحوّل إلى غرفةٍ واحدةٍ وجدار آيل للسقوط. نزل من السوزوكي ليبحث عن معالم البيت الذي تهدم بفعل برميلٍ على الأرجح. فجأةً

خاص عين المدينة

ضحك وقال: «هاد بيتي»، بعد أن حمل من بين الأنقاض شيئاً راح يمسحه ببنطاله، ثم قال: «هي صورتي». أزال الغبار عن بقعةٍ في الجدار ووضع صورته عليها. سألته فأجاب: «راح كل شي. بلكي بتحمي الحجارة اللي بقيت». غصّ الرجل وامتلأت عيناي بالبكاء.

عند عودتنا أوقفتنا جميع الحواجز، فالسوزوكي التي كنا نستقلها فيها الأشياء التي استطعت أخذها من بيتي. كلما مررنا بأحد الحواجز كانت كلمة «فهمك كفاية» تجبرنا على الدفع، حتى وصلت إلى الأشرفية وكنت قد دفعت للحواجز 7000 ليرة.

عندما بدأت بإنزال أغراضي مرّت بالقرب مني امرأةٌ وقالت: «هيك الصح... الواحد بيجيب غراضو وإيمت ما صحّلو بيرجع». قلت في نفسي: «ليتها تعلم كم استبيحت أغراضي».

على الواتس آب تواصلت معي إحدى الجارات التي كانت تسكن في بنايتي. وحين سألتها إن كانت عادت لتأخذ أغراضها أجابت بالنفي، وأنها ذاهبة إلى الريف الغربيّ. وحين استفسرت قالت: «هدول الخلق مو خلقنا. البلد بناسا، وما ضل شي ينبكى عليه».

الخوف الذي رافقني في اليومين الذين ذهبت فيهما إلى الحيّ كان أكبر بكثير من الخوف يوم خرجت إلى مناطق النظام، وأكبر من خوفنا من الصواريخ والبراميل المتفجرة. ولكن لعل ما هو أقسى من كل ذلك أن يحتل أحدهم بيتك، يرتدي ثيابك، فتشعر بالغربة في المكان الذي حمل أيامك.

خاص عين المدينة

الدعارة في حلب

فادي حسين ومصطفى أبو شمس

على الدوّار، بالقرب من كلية الهندسة المعمارية في حيّ الشهباء، تقف ثلاث نساءٍ من أعمار 18 و35 و45، أمامهنّ أكياسٌ من الخبز يبعنها للتغطية على عملهنّ الأساسيّ، إذ يعرضن أنفسهنّ لبيع أجسادهنّ.

عند اقترابي منهنّ في سيارة أجرةٍ اقتربت الصغيرة التي ترتدي الحجاب ومانطو قصيراً وعلى وجهها كميةٌ مبالغٌ فيها من الماكياج لا توحي بأنها تبيع الخبز. سألتها عن سعر الربطة فابتعدت لتأتي أكبرهنّ، التي ترتدي مانطو بنّياً وتوحي لهجتها بأنها حلبيةٌ دخيلة، وتسألني عن طلبي. اشتريت الربطة بـ200 ليرة. وعندما سألتها: «وغيرو؟» أجابت: «ما عنا شي تاني إلك»، ومضت تطقطق بعلكةٍ كبيرة.

سائق التاكسي الخمسينيّ قال إنه يراهنّ في المكان نفسه منذ أكثر من سنة. وإنه، بحكم خبرته، يعرف «المنيحة من العاطلة». وإن المرأة الكبيرة قوادة. ثم أضاف أن هذه الظاهرة انتشرت كثيراً في الآونة الأخيرة، وصارت لها صفة العلنية. وأن أغلب تلك النساء مدعوماتٌ من رجالٍ «واصلين» لا يستطيع أحدٌ محاسبتهم.

طريق المحلّق، أو «الصنم» كما يسميه أهالي حلب، الذي كان متنفساً للمدينة في ما سبق، تخرج العائلات إليه للتنزه وتناول المشاوي وتدخين الأرجيلة؛ أصبح الآن وكراً للنساء اللواتي يعملن بالدعارة وبطريقةٍ فجة. عند توجهي إلى هناك لاحظت أن معظمهنّ محجبات، وعددهنّ يتجاوز الـ20 موزّعاتٍ على الطريق الذي يمتد حوالي 1 كم، والسيارات تقف لتحمل من تتفق معه منهنّ.

توجهت إحدى الفتيات إلى التاكسي بعد أن وقفنا إلى جانب الطريق. أدخلت رأسها من الشبّاك وسألتنا: «وحدة ولا تنتين؟». أجابها السائق: «وحدة»، فسألتنا إن كنا نريدها بنتاً أو متزوجة. سألنا عن السعر فكان 2500 ليرةٍ للبنت و5000 للمتزوجة. الفرق أن البنت تعطيك القسم العلوي من جسدها فقط، أما المتزوجة فتقيم معك علاقةً كاملةً لمدة ساعة، وإن تجاوزت الساعة فتدفع 5000 أخرى.

علاء (27 سنة)، يملك محلاً لألعاب الكمبيوتر بالقرب من المدينة الجامعية، قال لنا: «هناك فتاةٌ عمرها 16 عاماً تأتيني كل يوم لتترك أخاها الصغير لسبع أو ثماني ساعاتٍ في محلي ليلعب بالكمبيوتر ثم تعود مساءً لتأخذه، علماً أن أجرة الساعة 100 ليرة. بدا الأمر غريباً، وعندما سألتها عرضت نفسها عليّ مقابل 5000 ليرة، وقالت إنها تخرج من البيت بصحبة أخيها على أنها ذاهبةٌ لتعلم الخياطة في مكانٍ قريبٍ من محلي، وإن أهلها فقراء وهي في حاجةٍ إلى المال». بينما أخبرنا أحمد، وهو صاحب ميني ماركت في المنطقة نفسها، أن الكثير من فتيات الجامعة امتهنّ الدعارة، وأن بعض الواصلين –في إشارةٍ منه إلى الشبّيحة– هم من يقوم بتشكيل الشبكات، وأن هذه البيوت تنتشر في المنطقة، ومعظم زبائنها شخصياتٌ «ذات أسماء في البلد».

بالقرب من مشفى الضبيط في حيّ المحافظة، وعلى بعد 100 مترٍ فقط عن فرع أمن الدولة، تقف فتاةٌ يبدو من ملامحها أنها لا تتجاوز الـ25 سنة، بلا مكياج، تضع على رأسها حجاباً أبيض وترتدي بنطالاً من الجينز، تستوقف السيارات وهي تنادي بصوتٍ مرتفع: «بـ1000 ليرة بس، والله بلاش». وعندما اقتربنا قالت لنا: «تعو، ليش خايفين؟»، ثم همّت بركوب السيارة ولكنها استدركت: «الدفع بالأول. عطوني 2000، أنتو تنين».

الأستاذ أحمد. ح، وهو مرشدٌ نفسيّ، قال لنا: «بعد الأحداث الأخيرة وغياب القوانين وانتشار الشبّيحة في المدينة، لم تعد هناك سلطةٌ للأهل على بناتهم ولا للزوج على زوجته. صارت التهم جاهزةً وبات تحدي الدعارة أمراً مخيفاً. كما أسهم غياب الرقابة القضائية في انتشار هذه الظاهرة كذلك».

العم أبو أحمد، وهو من عائلةٍ معروفةٍ في المدينة، قال لنا: «الواحد ما عاد يأمن على بنتو ومرتو يطلعو من البيت. إذا أخدا حدا ما منسترجي نطالب فيها، والتفتيش عالحواجز حتى للنسوان. صار الواحد يخاف يزعّل مرتو تروح تتطوّع بالجيش، ما عدنا استرجينا نحكي معن ولا كلمة». يضحك ثم يتابع: «الله يستر على ولايانا. قبل كان وقت تتذكر كلمة بحسيتا* الواحد يخجل، هلق كل شي صار عالمكشوف. هاد آخر زمن».

ويقول أحد المحامين في حلب، رفض ذكر اسمه: «أسهمت الصلاحيات التي أعطيت للشبّيحة ولرجال الأمن في انتشار الدعارة، فالكثير منهم يقوم بدور القوّاد ويحمي البيوت التي تقام فيها سهرات السكر والعربدة وسط امتعاض أهالي الحيّ، ولكن الجميع يسكتون ولا يقدرون على الشكوى، فالشبّيحة أعلى من سلطة القضاء في المدينة».

* بحسيتا حيٌّ في مدينة حلب كان يحوي دوراً مرخصةً للدعارة.

جرائم الشبّيحة في ريف جبلة
مؤيّدو النظام: «طباخ السم بيدوقو»

عارف سليمان

«طلعت من جبلة مع زبون طلب توصيلة ع القرادحة. عند كشك ع الطريق قال لي وقف، وقفت، نزل اشترى عصير وضيّفني. أبعرف شو صار بعدين، فقت لقيت حالي مرمي ع طرف الطريق».

هكذا سرقت سيارة سامر (35 عاماً) التي وضع فيها كدح سنواتٍ طويلةٍ كما يقول. لم يتوقع أن يكون ضحيةً مثل غيره من الضحايا المتكاثرين في الأوساط المؤيدة للنظام في الساحل السوريّ، لكن حظه العاثر بشراء سيارةٍ «عليها العين»، عقب تقاعده المبكر من الجيش لأسبابٍ صحية، جعل هذه السيارة هدفاً لجماعة حيدرة شاليش التي تشكل -إلى جانب مجموعاتٍ أخرى- ما يعرف بـ«شبّيحة القرداحة» ذائعي الصيت بأجيالهم المختلفة، ابتداءً بالجيل الأول نهاية الثمانينات مع محمد شيخ الجبل وفواز وهارون ومنذر وهلال من أبناء عائلة الأسد، وانتهاءً بأولاد هؤلاء أو أشقائهم الأصغر، مثل نمير وسليمان ويسار وحيدرة وكفاح ورفعت (الصغير)، إضافةً إلى آخرين من أبناء عائلات القرداحة ذات السلطة والنفوذ.

يعدّ سامر نفسه محظوظاً لأنه ظل على قيد الحياة ولأنه نجح، بعد توسط ضابطٍ كبيرٍ في الأمن العسكريّ، في أن يفدي سيارته بربع ثمنها المقدّر في السوق.

في قرية كفر دبيل، التابعة لبلدة عين شقاق شرقي جبلة، جرفت الأمطار الغزيرة التراب عن 13 جثةً دفنت على عجلٍ في مكانٍ واحدٍ تقريباً، تعود لنساءٍ مغتصباتٍ مقيدات الأيدي قضين بطلقاتٍ ناريةٍ في الرأس، وفق ما شاع على نطاقٍ ضيق. تعود بعض هذه الجثث لنازحاتٍ من محافظة الرقة إلى مدينة جبلة، اختطفن من هناك إلى كفر دبيل، وبعضها لمخطوفاتٍ من ريف المدينة. نسبت هذه الجريمة إلى عصابةٍ محليةٍ قال محافظ اللاذقية، في تصريحٍ له، إنه ألقي القبض على اثنين من أعضائها، و«إن التحقيق جارٍ لإلقاء القبض على البقية»، مطالباً بتوخي الدقة والحذر في الحديث عن هذه الجريمة، تجنباً للبلبلة وانتظاراً لنتائج التحقيقات.

وسيم بديع الأسد

حيدرة محمد الأسد

لم تخفف التحقيقات التي يعد المسؤولون الرسميون بإجرائها عقب كل جريمة، ولو ليوم واحد، من ظاهرة الانفلات الأمنّي المستفحلة في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، وخاصةً في الساحل ذي الأغلبية العلوية المؤيدة لبشار الأسد، التي تعيش ظروفاً مريرةً بين نارين؛ نار جماعات الشبّيحة التي لم تعد تقتل وتخطف وتشلّح «السنّية» فقط، ونار الجبهات البعيدة حيث يُفقد الأبناء كمجهولي مصيرٍ أو يعودون جرحى أو في توابيت. أخبار المعارك وقصص «الشهداء» وتشييعهم وخيم عزائهم، التي يتقلص عدد المعزّين فيها شهراً وراء شهر، صارت شأناً ثانوياً مقابل الحوادث الأقرب من قتلٍ و«تشليح» وخطفٍ طلباً للفدية، على الطرقات أو وسط الضيع والبلدات أو في البيوت، في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع أجهزة النظام الجنائية ومخابراته.

يبرّر بعض موالي النظام حالة الانفلات هذه بعدّها ظاهرةً ثانويةً من ظواهر الحرب ستزول بمجرّد توقفها، إذ ستستطيع الأجهزة الأمنية حينذاك ملاحقة «النفسيات التعبانة اللي مَتستغل الظروف». ويعدّ آخرون هذا الانفلات نتيجةً طبيعيةً للفساد وللتساهل الذي أبدته «الدولة» إزاء المجرمين العاديين أول الثورة مقابل مشاركتهم في قمع المظاهرات في اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس، ثم في إطلاق أيديهم بُعيد حملات القمع في تلك المدن حتى رضوخها. تجمّع هؤلاء المجرمون في كتائب انتسبت للدفاع الوطني وصارت تشارك في الاقتحامات في محافظات إدلب وحمص وحماة. وقد غذّت «الغنائم» المسلوبة من ممتلكات «المسلحين والعراعير» -وفق نظرة الشبّيحة إلى أهالي هذه المحافظات- «أسواق السنّة» الناشئة آنذاك، وكانت كافيةً إلى حدٍّ كبيرٍ لإشباع رغبات الشبّيحة وصرف انتباههم عن أبناء طائفتهم. لكن مع تنامي العمل المسلح على الطرف الآخر، وخروج كثيرٍ من المناطق نهائياً عن سيطرة النظام، وتحول الاقتحامات السهلة إلى معارك واشتباكاتٍ عنيفة، انصرف كثيرٌ من الشبّيحة ممن لم ينجحوا في بناء علاقاتٍ خاصةٍ مع «النمر» ومخابراته الجوية، أو الإيرانيين أو الروس، إلى ضيعهم وبلداتهم.

يقول أبو علي، وهو فلاحٌ ستينيٌّ من ريف جبلة: «لما بدن متخلف عن العسكرية بيبعتو جيش ليجيبوه، وأفيهن عا زعران! ولادنا مَيموتوع الجبهات منشان شو؟ إذا نحنا هون ما فيه الواحد ينام من الخوف ع بناتو أوع رزقو». ويضيف العجوز الذي سرقت بقرته منذ وقتٍ قريب: «طباخ السم بيدوقو».

الساحل السوريّ بين إيران وروسيا

صرّح رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الإيرانية، محمد باقري، في اجتماع مع ممثلي بحريته مؤخراً، أن «إيران قد تسعى إلى إقامة قواعد بحرية في اليمن أو سوريا مستقبلاً». هذه هي المرّة الأولى التي يعرب فيها الجيش الإيرانيّ عن نيّته إنشاء قواعد بحرية خارج أراضيه. المثير في الأمر أنه على الرغم من أن إيران هي الحليف الأقرب للحوثيين فقد انتقد صالح علي الصماد، رئيس المكتب السياسيّ لحركة «أنصار الله»، تصريحات باقري، في حين لم يصدر أيّ تعليق عن الأسد وحاشيته، الحريصين جداً على التذكير بالسيادة الوطنية والخيار السوريّ المستقل في كل مناسبة!

د. علي حافظ

لكن ما مدى واقعية نوايا رئيس هيئة الأركان؟ وأين يمكن نشر الوجود البحريّ الإيرانيّ في الساحل السوريّ؟ وهل سيؤثر على الوجود العسكريّ الروسيّ في طرطوس واللاذقية؟

تمتلك إيران قواتٍ بحريةً محدودةً نوعاً ما، وأغلبها قديمٌ جداً وغير قادرٍ على منافسة أساطيل القوى المتقدمة الرئيسية في العالم. ما يثير شكوكاً حول إمكان زيادة الوجود الإيرانيّ العسكريّ في البحر الأبيض المتوسط، لا سيما وأن على هذه السفن أن تمرّ بطرقٍ معقدةٍ للغاية كذلك. وقد حاولت البحرية الإيرانية استكشاف مياه المتوسط مراراً، لا سيما في عام 2012، عندما أجرت مجموعةٌ من المدمرات وسفن المساعدة التابعة للأسطول الإيرانيّ مناوراتٍ مشتركةً مع البحرية الأسدية. لكن ذلك أحدث ضجةً إعلاميةً عالميةً واسعة، لا سيما في إسرائيل، بسبب مرور تلك المدمرات والسفن عبر قناة السويس بموجب اتفاقٍ سريٍّ بين القاهرة وطهران!

منذ ذلك الحين والمعلومات تتحدث عن بحارةٍ إيرانيين في ميناء بانياس، وعن سفنٍ تنقل الأسلحة والذخائر والوقود -بشكلٍ دوريّ- إلى ميناء تلك المدينة التي تحوي مصفاةً كبيرةً إلى حدٍّ ما لتكرير النفط. ولذلك، من الممكن أن تكون هناك قاعدةٌ عسكريةٌ إيرانيةٌ أيضاً، حسبما صرح الخبير الروسيّ في معهد الشرق الأوسط سيرغي بالماسوف.

وتؤكد بعض المصادر أن رئيس حكومة النظام، عماد خميس، عقد اتفاقيةً مع نظام الوليّ الفقيه في طهران، منتصف كانون الثاني 2017، تنصّ على «تخصيص خمسة آلاف هكتار لإنشاء ميناءٍ نفطيّ»، بينما أوردت مصادر أخرى أن العقد السادس من العقود التي وقعت هناك يضمن «استثمار أحد الموانئ السورية» من قبل إيران.

لم يُعرف بالضبط المكان الذي وقع عليه الاختيار ليكون ميناءً عسكرياً إيرانياً، إلا أن المرجح أن يكون شاطئ بانياس، بالقرب من مدينة طرطوس، حيث يقع المرفأ الذي قامت القوات الروسية بتوسعته في الفترة الأخيرة ليكون قاعدةً عسكريةً دائمةً لها على سواحل المتوسط.

من الواضح أن إيران، التي فقدت مكانتها المركزية في الحرب السورية جرّاء دخول روسيا، ستتعاون مع هذه الأخيرة طالما أنهما حليفتان، تخوضان الحرب ضد خصمٍ واحد: أعداء الأسد في هذه الحالة. وبمجرد أن تنتهي قضية إعادة تنظيم المستقبل السوريّ في الأراضي الواقعة تحت سيطرة دمشق سيحاول الأميركيون جرّ روسيا إلى التصادم مع إيران. من حيث المبدأ، يمكن لروسيا أن تلعب جنباً إلى جنب مع نموّ الوجود الإيرانيّ في سوريا، لأن مصالحها في المنطقة تتقارب مع مصالح إيران لا مع اللاعبين الآخرين: الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا والمملكة العربية السعودية.

إذا تركت إيران وحدها في سورية فستضطرّ إلى القتال ضد خصمٍ قويّ، يملك مواردَ بشريةً هائلةً وقدراتٍ ماليةً قوية، لذلك من المفيد هنا المساومة. إيران شريكٌ صعبٌ وغير مستقرّ، لكن يمكن لروسيا أن تعمل معه. وتعرف هذه الأخيرة أنه في حال قوي نظام الأسد مع داعميه الإيرانيين، في المستقبل القريب، فسيطلبون من الروس مغادرة سوريا بكل بساطة!

كتب تسفي بيرئيل، محلل شؤون الشرق الأوسط في صحيفة هآرتس، أن إيران قامت بحساباتٍ سياسيةٍ باردة، ورأت أنها لا تستطيع وقف التأثير الروسيّ في سوريا، ولذلك قررت الانضمام إلى العربة بدل الصدام معها، خاصةً أن الجانبين موجودان في الخانة نفسها بالنسبة إلى بقاء الأسد. هناك شيءٌ آخر يصبّ في مصلحة الإيرانيين البارعين في حفلات الاستقبال الدبلوماسية المختلفة. فهم، بعد مناوراتٍ خفيفةٍ من الاعتزاز بسيادتهم، وافقوا -خلال الصيف الماضي- على تقديم قاعدة همدان الجوية لتستخدمها الطائرات الروسية في شنّ هجماتٍ ضد المعارضة السورية. وهذا ما فسّره يوسي ميلمان، المحلل الإسرائيليّ المختصّ بالشؤون العسكرية والاستخباراتية في صحيفة معاريف، بقوله: «إن رغبة إيران في مساعدة نظام الأسد تتغلب على حساباتها الثانية، لذلك هي مستعدةٌ لتقبل الفكرة رغم حرصها الشديد على سيادتها».

جيش خالد بن الوليد أو داعش الجنوب
عن سيرتها وصراعها من أجل البقاء

علي غنام

تراجعت حدّة المواجهات في ريف درعا الغربيّ بين فصائل من المعارضة المسلحة من طرفٍ وفصائل تابعةٍ لتنظيم داعش، اندمجت تحت اسم جيش خالد بن الوليد، من طرفٍ آخر، منذ سيطرة المعارضة على بلدات تسيل وسحم الجولان وعدوان في نيسان الماضي.

وثبتت، منذ ذلك الوقت، خارطة السيطرة بين الطرفين على انكفاء فصائل داعش إلى 11 قريةً من قرى وادي اليرموك، تمتد على مساحة 100 كم2 تقريباً، في بقعةٍ تحاذي الأردن والجولان السوريّ المحتلّ. يثير الموقع الذي تمترست فيه داعش مخاوف إسرائيل والمملكة الأردنية التي ترعى، بالشراكة مع دول غربيةٍ وعربية، ما يعرف بـ«غرفة موك الجنوب»، المسؤولة عن برنامج دعم وإمداد فصائل الجبهة الجنوبية من الجيش الحرّ. وتمكّن غرفة الموك، فضلاً عن الجوار الجغرافيّ بوصفه متنفساً خلفياً لفصائل الجبهة الجنوبية، الأردن من تحقيق تأثيرٍ واسعٍ على هذه الفصائل، بما يضبط أداءها وعملياتها العسكرية وفق البرامج الغربية لـ«محاربة الإرهاب» التي يتبناها الأردن كواحدةٍ من سياساته إزاء الصراع في سورية. وتكشف تصريحات رئيس الأركان الأردنيّ الأخيرة طبيعة الدور الذي تلعبه حكومته في ذلك الصراع، من جهة مهادنتها نظام الأسد وتركيزها على التخلص من تنظيم داعش ممثلاً بجيش خالد بن الوليد. قدمت غرفة الموك للفصائل التي تحارب جيش خالد إمداداتٍ سخيةً من الذخيرة والسلاح، وزوّدتها، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، بمعدّاتٍ هندسيةٍ ثقيلةٍ لتحصين دفاعاتها على خطوط الجبهات، إضافةً إلى تجهيزاتٍ إلكترونيةٍ وآلات كشف عن المتفجرات. وقبل شهرين تقريباً كان من المخطط أن تهاجم قوةٌ سوريةٌ درّبتها الأردن، انطلاقاً من أراضيها، مواقع جيش خالد شمالاً في الأراضي السورية، لدفعه بعيداً عن تهديد الحدود، بتغطيةٍ ناريةٍ ثقيلةٍ من الجانب الأردنيّ، لكن الخشية من معدل الخسائر البشرية المرتفع في صفوف المهاجمين حالت دون وقوع هذا الهجوم، وفق ما أشيع. وحتى الآن لم توجه طائرات التحالف الدوليّ أيّ ضرباتٍ على مواقع جيش خالد في سياق حربها ضد تنظيم داعش، ويأتي ذلك ضمن تفاهماتٍ خاصّةٍ أميركيةٍ-روسيةٍ تحضر فيها الأردن وإسرائيل، التي يقتصر دورها العمليّ على الردّ -بين وقتٍ وآخر- على مصادر إطلاق النار نحوها من معقل داعش في حوض اليرموك.

من جانبها، أحكمت فصائل المعارضة المسلحة حصارها على جيش خالد في تلك البقعة من جهتي الشرق والشمال. وتقلصت بذلك الحصار، إلى حدٍّ كبير، عمليات تهريب الذخيرة والسلاح، وأعيقت حركة التسلل لمبايعين جدد -على قلتهم- نحو القرى الواقعة تحت سيطرة جيش خالد. وتبدو الفصائل اليوم مكتفيةً بما حققته ضدّ هذا الجيش بعد أن حشرته في مكانه الحاليّ، وطهرت معظم المحافظة من المجموعات المشتبه بتابعيتها له، ومن كثيرٍ من خلاياه الأمنية النشطة. وتدرك هذه الفصائل أن الإجهاز النهائيّ على جيش خالد يتطلب قدراتٍ أعلى مما تتمتع به اليوم، خاصّةً بعد انسحاب جبهة النصرة أو فتح الشام من الحرب ضده، بانتقال الجزء الأكثر تشدداً من مقاتليها ضد داعش من درعا إلى محافظة إدلب، في صفقةٍ مع قوّات الأسد في الشهر الأخير من العام 2015، بقيادة الشرعيّ العام السابق للنصرة أبو ماريا القحطاني. ويعزّز موقف النصرة بالانسحاب تصنيفها على لوائح الإرهاب الدولية، ما يجعلها الهدف التالي بعد الخلاص من داعش في محافظة درعا.

يحاول جيش خالد كسر حالة الجمود والانكفاء التي يمرّ بها، اعتماداً على أساليب التنظيم الأم -داعش- في ترويع الخصوم بعمليات الاغتيال والتفجير وتعميق حالة الفوضى والانقسام والتناحر في صفوفهم، مستفيداً من مهاراته في الحرب النفسية واستثمار الأخطاء ومظاهر الفساد وشبهات التواطؤ والتبعية التي تحوم حول قادةٍ في الجبهة الجنوبية لأجهزة مخابراتٍ عربيةٍ وغربية. وتخدم محاولات النظام الحثيثة في درعا، لعقد هدنٍ ومصالحاتٍ وتسويات وضع واسعة النطاق مع مجموعاتٍ عسكريةٍ محليةٍ مناهضةٍ له، دعايةَ داعش. وتخدمها أيضاً المواقف الدولية المخجلة تجاه معاناة الشعب السوريّ، وتخاذلها الفاضح في وضع حدٍّ لجرائم نظام الأسد، وصمتها عن التدخل الإيرانيّ بوجهه الطائفيّ السافر إلى جانب النظام، ما يعمق مشاعر القهر واليأس والغضب، ويرسخ النظرة العدمية التي تقود في بعض مساراتها إلى تبني أفكار داعش ونظرتها.

ورغم انكماش قدرته على تجنيد المزيد من المبايعين في المنطقة الواسعة من درعا بعيداً عن معقله في حوض اليرموك، وعجز المجموع السكانيّ في القرى الخاضعة له – 50 ألف نسمة تقريباً- عن تحقيق التغذية البشرية المطلوبة لإحداث فارق؛ يستطيع جيش خالد الصمود بالعدد الحالي لمقاتليه، وهو 700

مقاتل تقريباً، منهم نحو 100 من جنسيات أردنية وفلسطينية وخليجية، وبعتاد يتألف من عشرات المدرعات ومدافع ثقيلة من عيارات مختلفة ومدافع هاون وصواريخ مضادة للدروع ورشاشات متنوعة وعشرات السيارات رباعية الدفع.

وتتمتع داعش درعا ببنية متماسكة، اكتمل نموّها حين اجتمع فصيلان رئيسيان بايعا التنظيم، هما لواء شهداء اليرموك في معقله الأساسيّ بوادي نهر اليرموك، وحركة المثنى الإسلامية المندحرة من مناطق نفوذها وسط درعا إلى الوادي في الأشهر الأولى من العام الماضي، فضلاً عن فلول ثلاث مجموعات متشدّدة أخرى هي كتيبة حمزة أسد الله المطرودة من بلدة طفس، وسرايا الأقصى المطرودة من بلدة إنخل، وجيش الجهاد المندحر عن معقله في القحطانية بريف القنيطرة. لتندمج كل هذه المجموعات الخمس، في أيار الماضي، في جسم واحد أطلقت عليه اسم جيش خالد بن الوليد تيمناً بقائد جيش المسلمين ضد الروم في معركة اليرموك عام 15 هجري.

لم تشهد محافظة درعا نشوء حركات سلفية جهادية صغرى أو متوسطة (انظر إصدار مجلة «عين المدينة» الخاصّ بعنوان «طيف القاعدة») كما حدث في وسط وشمال سورية. ويرجع ذلك إلى عوامل عدّة منها البعد الجغرافيّ عن حركة طلاب الجهاد العرب، وغياب درعا عن مشهد انتفاضة الإخوان المسلمين ضد حافظ الأسد في ثمانينات القرن الماضي، إذ شكلت دمشق القريبة ملعباً اكتفى به ناشطو الإخوان المتحدرين من درعا، مما جنبها بطش حافظ الأسد ووحشيته التي ظهرت في مدن الوسط والشمال، تلك الوحشية التي أسهمت في خلق جيل حركيٍّ ثانٍ أشد عنفاً من آبائه، وجد في نموذج القاعدة، ثم في تحولاتها قبل الثورة وبعدها، التعبير الأمثل عن نفسه.

ولم يلق معتقلو صيدنايا من أبناء محافظة درعا، وقت إطلاق سراحهم أول الثورة، المناخ الملائم في قرى وبلدات المحافظة لإطلاق مشاريعهم الجهادية الخاصة. وخلافاً لكل القصص الموضعية لولادة داعش في المحافظات الشمالية والشرقية من رحم جبهة النصرة، أو بانقسامها إثر إعلان قيام «الدولة الإسلامية في العراق والشام» في نيسان 2014؛ ولدت داعش درعا بطريقة أخرى ومن رحم الجيش الحرّ، مع لواء شهداء اليرموك الذي تأسّس ككتيبة بهذا الاسم في أوائل 2012، وتحول إلى لواء في النصف الثاني من العام ذاته. أبلى «شهداء اليرموك» بلاءً حسناً في قتال قوات الأسد. وظل، خلال العامين الأولين من عمره، متمسكاً بعلم الثورة ومتبنياً شعاراتها، بالرغم من الصبغة السلفية لمؤسّسه أبو علي البريدي التي انسحبت، بمرور الوقت، على غالب مقاتلي اللواء الذي تحول، بشكل متدرّج، إلى جماعة سلفية جهادية على نموذج تنظيم داعش، يرفع علمه الخاصّ المشابه لعلم التنظيم في الأشهر الأخيرة من عام 2014، ليشكل، منذ ذلك الوقت، نواة داعش المتينة في محافظة درعا، ويخوض مجابهات عنيفة صمد في معظمها ضد جبهة النصرة وأحرار الشام وبعض فصائل الجيش الحرّ. أما حركة المثنى الإسلامية، التي بدأت ككتيبة إسلامية الصبغة عام 2012، فلم تبدِ أيّ علامات تشددٍ مبكرة بالرغم من إحجامها عن رفع علم الثورة وتجنبها تبني شعاراتها، مع أنها كانت تتلقى الدعم من بعض روابط وتجمعات أبناء المحافظة المغتربين في دول الخليج العربيّ، قبل أن يوقفوه مع الميل المتنامي لقادة الحركة نحو التطرّف، وقبل أن تتهم بعمليات خطفٍ واغتيال كان منها اختطاف رئيس مجلس محافظة درعا آنذاك، الراحل يعقوب العمار، في الشهر الأول من العام الفائت، لتتأكد بذلك الشكوك في أنها بذرة ثانية لتنظيم داعش، ثم تندلع المعارك ضدها فتتقهقر إلى ملاذٍ آمنٍ في معقل حليفها.

تحرم السمعة السيئة لتنظيم داعش في مناطق سيطرته الرئيسية شرقيّ البلاد، ثم ممارسات فرعه في درعا، هذا الفرع من أيّ تعاطفٍ شعبيٍّ في المحافظة، رغم حالة التذمر العامة من فوضى الجيش الحرّ، ما يسهم في تكريس حالة العزلة التي يعيشها الدواعش في منطقة معزولة وطرفية مثل حوض اليرموك. وعلى أصداء الهزائم التي تمنى بها داعش في سورية والعراق من غير المتوقع أن تحظى بأيّ إعجاب بطوليٍّ يمكن توظيفه في الصراع الذي سيؤول، في نهاية المطاف، إلى القضاء على جيش خالد وسحقه.

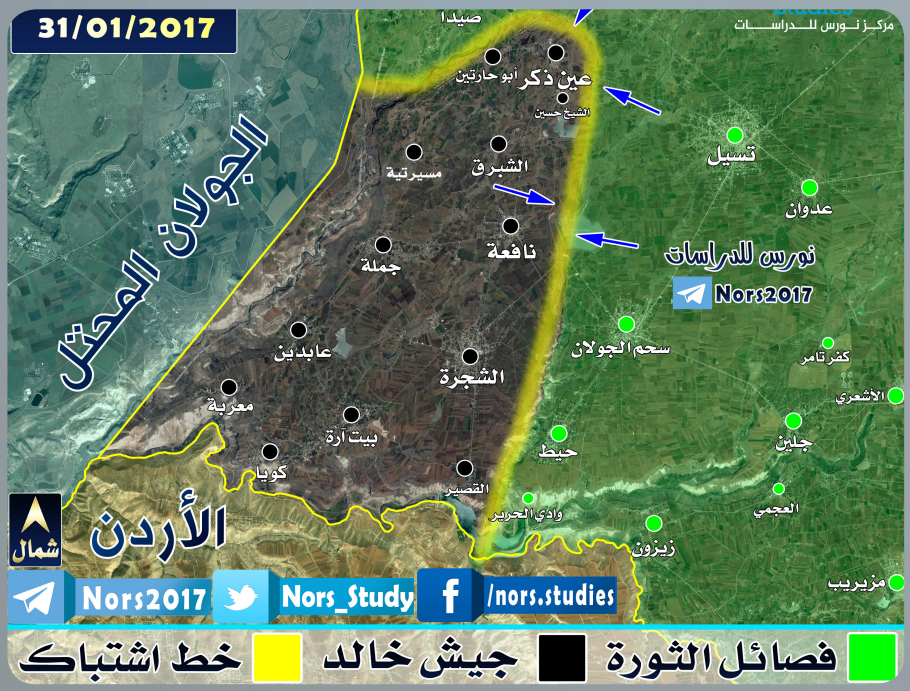

GETTY

ترامب الذي قال وفعل

ما كان لأكثر المتشائمين من فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية الأميركية أن يتخيلوا أنه سيحقق فعلاً بعضاً مما وعد به في حملته الانتخابية من قراراتٍ فضائحية. لكن الرجل بدا متحمساً جداً لتوقيعه المعقّد الذي ذيل به عدداً من القرارات من شأنها أن تؤثر على حياة ومصير ملايين الناس داخل الولايات المتحدة وخارجها.

بكر صدقي

فكما ألغى، بشطبة قلم، قانون الضمان الصحيّ الذي يعتبر درة تاج إنجازات الرئيس السابق باراك أوباما، لم يرتجف قلمه وهو يوقع على حرمان مواطني سبع دولٍ إسلاميةٍ من تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة. ولزيادة جرعة العنصرية في هذا القرار، استثنى منه المنتمين إلى أقلياتٍ مسيحيةٍ في تلك البلدان. وهكذا نسف الرجل إحدى أهم قيم العصر الحديث، بعدما تكرست على مستوى الخطاب على الأقل.

جاءت النذر الأولى لهذا المسار في خطاب القسم، عندما جلد ترامب الإدارات الأميركية السابقة، وكأنه يقوم بـ«حركته التصحيحية»، وأطلق شعاراً لا يليق بالدولة العظمى التي سيرأسها في السنوات الأربع القادمة: «أميركا أولاً!»، كما لو كانت هذه إحدى الدول النامية المحكومة بدكتاتوريةٍ فاسدةٍ تسعى إلى الاختباء وراء ديماغوجيا وطنيةٍ جوفاء.

لا أدل على النزعة الدكتاتورية لدى ترامب أكثر من برمه الشديد بالصحافة. فقد بلغ الأمر بأحد مستشاريه حدّ القول إنه على الصحافة أن تخرس، وأن تسمع بأكثر مما تتكلم! وذلك في مواجهة الموقف السلبيّ الذي اتخذته الصحف الأميركية من الرئيس الجديد وتوجهاته اليمينية وعدم تحرّجه من إطلاق الأكاذيب.

إضافةً إلى إلغائه الضمان الصحيّ وإجرائه العنصريّ في حقّ المسلمين، بمن فيهم أولئك الذين يملكون حق الإقامة في الولايات المتحدة، أمر ترامب ببناء السور الذي سبق وتوعد به على طول الحدود مع المكسيك، مطالباً الجارة الفقيرة بتحمل تكاليف البناء. وهو يتعامل مع موضوع المنطقة الآمنة التي وعد بإقامتها في سوريا بمنطق البزنس، فهدفه المعلن منها هو التخلص من اللاجئين السوريين الفارّين من جحيم الحرب، ووقف تدفق المزيد منهم، إضافةً إلى أنه يريد تحميل الأعباء المالية لإقامة المنطقة الآمنة للمملكة السعودية. من المحتمل أن الحرب الفعالة على تنظيم داعش التي توعد بها، وأمر البنتاغون بالانتهاء من وضع خطتها في غضون شهرٍ واحد، ستخضع للمنطق التجاريّ نفسه بحيث يعمل على تحميل كلفتها لدولٍ أخرى.

وكما بدأ ترامب تحويل وعوده إلى إجراءاتٍ عمليةٍ بسرعةٍ قياسية، كذلك نمت المقاومة الاجتماعية والمؤسّسية ضده بسرعةٍ لافتة. مظاهراتٌ كبيرةٌ تندد به أمام البيت الأبيض، وفي مختلف المدن الأميركية، النيابة العامة توقف قراره المتعلق بحجب تأشيرات الدخول للمسلمين، محامون يعتصمون في المطارات الأميركية لمساعدة من يتعرّضون لمنع الدخول بموجب الفرمان الترامبي العنصريّ، مليونا توقيع على بيانٍ يطالب بإلغاء زيارة ترامب إلى بريطانيا، سلسلة مقاهي ستاربكس الشهيرة تقرر توظيف عشرة آلافٍ من اللاجئين السوريين في فروعها المنتشرة عبر العالم، للسنوات الخمس القادمة..

هل هي مؤشراتٌ مبكرةٌ إلى أن الترامبية ستنكسر أمام هذه الموجة، فإما أن تتعقلن أو تتجه إلى نهايتها بطريقةٍ أو بأخرى؟ أم أنها ستترسخ ويمتد تأثيرها إلى دول أخرى، كما هي الحال فعلاً في عددٍ من الدول الأوروبية التي تشهد صعوداً مماثلاً لليمين العنصريّ ذي الخطاب الشعبويّ، فتتعزز الترامبية بها أكثر؟ لا أحد يملك جواباً الآن. لكن المؤسف أن مقاومة الترامبية من خارج الولايات المتحدة هي أقرب ما تكون إلى العدم، مقابل مقاومةٍ داخليةٍ نشطةٍ من المجتمع والمؤسّسة الحاكمة الأميركيين.

ربما الصين هي الاستثناء الوحيد. فهي تتحدث اليوم عن طموحها لقيادة العالم، بعد تخلي «الآخرين» عن هذا الدور، ويصرّح قادتها العسكريون أن اندلاع حربٍ مع الولايات المتحدة أصبح في نطاق الاحتمال الواقعيّ، لا المتخيل.

الخلاصة، يبدو أننا سنحبس أنفاسنا كثيراً في الفترة القادمة. فليس مما يدعو إلى الاطمئنان أن يحكم أقوى دولةٍ في العالم رجلٌ يشبه معمر القذافي.

هل تسفر المبادرات والمراجعات الراهنة عن أملٍ للسوريين؟

أحمد عيشة

الأتارب - سيريا غراف

شكّل ما حدث مؤخراً في مدينة حلب، بسيطرة جيش النظام والميليشيات الشيعيّة المؤسَّسة والمدعومة إيرانياً، مع الغطاء الجويّ الروسيّ، في آخر أيام العام 2016، لحظة مراجعة للجميع، عسكريين وسياسيين، لتقييم المواقف وطرح تصوّرات صارت معروفة باسم مبادرات، هي حتى تاريخه ثلاثٌ أو أربع، عدا عن الاتفاق الروسيّ التركيّ، الذي أشرك عدداً من الفصائل العسكرية، كمقدمة لاختيار المجموعة السياسية التي تتوافق مع بنوده المحورية، وهي الحرب على الفصائل المصنفة إرهابية، والتشارك مع النظام في صيغة حكم جديدة.

الأمر في غاية الضرورة للجميع، ويتركز حول أسئلة محوريّة: أيّ سورية نريد؟ وما الوسائل اللازمة للوصول إلى ذلك؟ والأكثر أهميةً هو ما الذي نملكه من هذه الوسائل؟

باستعراض بسيط للوقائع التي انتهت إليها الحال نجد أن البلاد باتت متوزعةً بين قسمين: الأول يتقاسم السيطرة فيه النظام والفصائل العسكرية المعارضة، بنسب متفاوتة، وتشرف عليه إقليمياً ودولياً، تحت صيغ مختلفة، دولٌ ثلاث: روسيا وإيران وتركيا، وهو موضوع الاتفاق والترتيبات الأمنية، ثم المفاوضات السياسية؛ والثاني تتقاسمه سيطرة «الدولة الإسلامية» (داعش) وقوات وحدات الحماية الشعبية التابعة للفصيل الكرديّ الأكثر نفوذاً، وتتحكم فيه، إلى حدٍّ بعيد، الولايات المتحدة، دعماً هنا وحرباً هناك، وهو خارج مجال المباحثات والتفاوض المطروح حالياً.

الفصائل العسكرية الأكثر نفوذاً وتأثيراً هي الإسلامية، وصفتها الإسلامية ليست كافيةً لوصفها بالتطرف والإرهاب. فالعنف المفرط الذي واجه به النظام أولاً، ثم الميليشيات الشيعية، وأخيراً القوات الروسية، المجتمع السوريّ الذي خرج رافضاً سيطرة العائلة المزمنة واحتقارها للجميع، كان من الطبيعيّ جداً أن يكون الإسلام وعقيدته أحد أسلحته -إن لم يكن الوحيد- في مواجهة ذاك العنف الوحشيّ. لكن التحولات التي صاحبت هذا السلاح، وخاصةً الإقليمية والدولية، المساندة والمعارضة، سهلت تحويله أكثر نحو التطرف، وهو الذي يمتلك أرضيةً عقيديةً تسوّغ ذلك.

أما المعارضة السياسية، من حزبيةٍ ومستقلة، فلم تتمكن، لأسباب أساسيةٍ في تركيبتها أولاً، وتصوّراتها المتوهمة ثانياً، وارتباطاتها الإقليمية ثالثاً، ولهاثها نحو السلطة أخيراً، من تشكيل جسدٍ سياسيٍّ وطنيّ (رغم مساعيها العديدة وتضحيات الكثير من تياراتها وشخصياتها)، جسدٍ يمكن أن يكون موحداً وعامل جذبٍ لغالبية السوريين.

فقد كانت معارضةً ديمقراطيةً دون العمل بالآليات الديمقراطية التي تقرّ بالاختلاف أولاً، وتجديد القيادة، وتعتبر العملية السياسية عملية صراع بوسائل سلميةٍ بين القوى والفعاليات المحلية والإقليمية والدولية. فكانت -في أكثر أوقاتها- ديمقراطيةً دون حريات، مستندةً إلى جدرانٍ أيديولوجيةٍ يصعب التفاعل بينها، وثانياً خاضعةً وليست متفاعلةً مع العوامل الإقليمية والدولية. بمعنى أنها اعتمدت سياسة الانعزال داخل تلك الجدران بدلاً من أن تبني الجسور بينها.

والسؤال المهم حالياً: ما الذي يمكن أن تؤدي إليه مراجعاتٌ تنشدها تلك التيارات والشخصيات؟

وفق الظروف والمعطيات السابقة، التي ترافقت مع شعورٍ ووقائع لدى الكثيرين بنوعٍ من الفشل أو حتى الهزيمة، وسط دوامةٍ من المآسي والتخبطات التي تعيق إمكانية الخروج منها، قد تكون هذه المراجعات عوداً على بدء. فتعلقنا بالزمن الدائريّ المرافق للأساطير والعقائد يمنعنا من التجديد، من التقدم، بمعنى أنه عقبةٌ حقيقيةٌ أمام استيعاب المتغيرات التي يجب التعامل معها. فالاستراتيجيات تنطلق من الوقائع نحو إمكانية التأثير فيها وتحويلها إلى أشكالٍ ممكنةٍ جديدة، ولا ترسم الوقائع كما تتمنى العقائد.

وما لم تكن الوقفة جديةً وقصدية، بمعنى أن تكون مراجعةً ونقداً حقيقياً (سياسياً لا عقائدياً) لمسيرة السنوات الستة، بغاية محاولة التوصل إلى ما يحقق للناس ما يعدّونه الأكثر أهميةً وضرورةً لبناء البلد من حقوق أساسية للجميع دون أيّ تمييز، ووفق قانونٍ يسود على الجميع ويكفل حريات الرأي والتعبير والاختلاف والعيش الكريم وغيرها من الحقوق الأساسية؛ ستتحول هذه المراجعات إلى تخندقاتٍ جديدة، ولكن بأشكالٍ أكثر عقائديةً وتطرفاً. فكلنا نعرف أن النتيجة التي وصلت إليها الحال، والتي تؤثر كثيراً في تقييم العملية السياسية، لا تتناسب إطلاقاً مع التضحيات التي قدمها السوريون ومع الدمار الذي لحق بالبلد. ولكن محاولةً جديدةً لفهم العملية السياسية بما هي عملية صراعٍ وتوافقٍ مستمرّين، بدلاً من التعامل بجمودٍ أيديولوجيّ، هي الكفيلة بتوصلنا إلى نقاطٍ مشتركةٍ غايتها حقوق البلاد والعباد، لا تدميرهم. وإن لم تكن المراجعات كذلك سنرى تخندقاً جديداً من طرف قوىً إسلاميةٍ أكثر تطرفاً من داعش، ومن جهةٍ أخرى قوىً «ديمقراطية» أكثر عقائديةً و«علمنة»، وسيكون الرابح الوحيد هو قوى الاستبداد والطغيان.

ترامب وبوتين عضوان في المؤسّسة العالمية الجديدة للطُغم الحاكمة

أليكسي باير
مجلة غلوباليست الأميركية/ 21 كانون الثاني
ترجمة مأمون حلبي

بوتين قليل الاكتراث بروسيا، وكذلك شأن ترامب بخصوص أميركا. إنهما، بوتين وترامب، يهتمان بجعل العالم آمناً بالنسبة إلى الأثرياء المتخمين.

منذ أن ترشّح دونالد ترامب لرئاسة أميركا استطاع كيل السباب لكل شخص تقريباً. لقد أصابت سهام شتائمه المكسيكيين، ووصلت إلى الصينيين، وطالت كثيراً من الأميركيين، من الممثلة ميريل ستريب إلى الجمهوريّ جون لويس. الشخص الوحيد الذي لا يمكن أن يُخطئ، في نظر ترامب، هو بوتين. قد تبدو غريبةً هذه العلاقة الوثيقة بين قطٍّ سمين عمل كتاجر عقاراتٍ وكولونيلٍ سابق في جهاز الاستخبارات السوفييتي كرّس النصف الأول من حياته لقضية دفن الرأسمالية.

سبب افتتان ترامب ببوتين

ثمة مزاعم أن لدى بوتين مستمسكاتٍ على ترامب، ترغم الرئيس الجديد أن يغنّي على أنغام نظيره الروسيّ. وفي حين أن هكذا مستمسكات قد تكون موجودة، إلا أنه يوجد تفسيرٌ أقل مؤامراتيةً يُبيّن سبب تناغم الاثنين، ونوع النظام العالميّ الذي يشرعان في بنائه بشكلٍ مشترك.

«ليس للعمال وطن»، هذا ما أعلنه ماركس وأنجلز عام 1848. لقد اعتبر الاثنان أن التضامن الطبقيّ، وليس القومية، هو الأمر الحاسم. وهكذا تمّ تأسيس الأممية الأولى في لندن عام 1864، وأصبح النشيد الأمميّ نشيد الطبقة العاملة. لقد برهنت الحرب العالمية الأولى أن ماركس كان مخطئاً جملةً وتفصيلاً بهذا الخصوص. فقد أظهر عمال العالم حماساً لافتاً لقتل بعضهم، وكانت الأحزاب الاشتراكية من بين قادتهم الأكثر حماساً للحرب. وفي خاتمة المطاف أزالت فظائع النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا الغشاوة عن عيون الناس، لكن بعد مذبحةٍ أخرى في الحرب العالمية الثانية. أوروبا، التي أصبحت أكثر تبصّراً، اتجهت نحو الحدود المفتوحة والتسامح وروح استيعاب الآخر والمؤسّسات متعددة البلدان. لكن على ما يبدو أن دروس التاريخ قد أصابها البلاء. ففكرة تمييز ومحاباة أهل البلد الأصليين على حساب الوافدين الغرباء، وفكرة تسيّد البيض على الآخرين، والعنصرية والعداء للساميّة، تنتشر في الولايات المتحدة. وكيلا يفوتهم القطار قرّر الأوروبيون، يترأسهم البريطانيون، أن يجرّبوا شيئاً جديداً ومثيراً: القوميّة. ها قد أخذ مواطنو أممٍ مختلفةٍ يتظاهرون من جديدٍ تحت راياتٍ قومية، مطالبين أن تكونَ بلدانهم خاليةً من الأجانب. لا بد أن ماركس يستشيط غضباً في قبره.

الأممية الجديدة: أفراد الطُغم الحاكمة يتّحدون!

ومع ذلك، الأممية حيّةٌ وبصحةٍ جيدة، ولكن في الطبقة الجديدة للمتخمين بالثروة. هذا أمرٌ كان سيُدهش ماركس، الذي توقّع أن الطبقة الرأسمالية في كلّ بلدٍ من البلدان ستواصل الصراع ضد نظيراتها في البلدان الأخرى من أجل السيادة العالمية.

لقد ظهرت طبقة الأغنياء الكبار العالمية قبل نحو أربعة عقود. يتحدّر أعضاء هذه الطبقة من بلدانٍ مختلفةٍ ومنابع اجتماعيةٍ شتّى. لديهم خلفياتٌ مهنيّةٌ مختلفةٌ ويكسبون مالهم من خلال تنويعةٍ من الطرق القانونية، وشبه القانونية، والإجرامية. إنهم يتنوّعون، من ورثة آل روتشيلد إلى المغامرين التجاريين والمستثمرين القائمين على دعمهم. تشمل هذه الطبقة مضاربين ماليين ومصرفيين ورؤساء شركاتٍ بمكافآتهم الضخمة والمبالغ الخيالية التي يحصلون عليها عندما يسرّحون، فضلاً عن نجوم الرياضة والترفيه وغيرهم. وبالطبع، علينا ألا ننسى لصوص السلطة وشيوخ النفط وأمراء المخدرات.

أعدادٌ تبعث على الصدمة

استنكر تقريرٌ صدر حديثاً، عن منظمة أوكس فان، الهوّة الواسعة في الثروة بين الأغنياء والفقراء. المعلومات التي توصّل إليها التقرير، والتي تُبيّن أن حفنة من الأغنياء تملك أكثر مما يملك نصف سكان العالم، تصدّرت أخبار الصحافة. أمّا الإحصاء الصادم بدرجةٍ أكبر بكثير، والذي لم يحظ بالانتباه بالدرجة نفسها على الأقل، فهي أن مجموعة الـ1% سيئة الصيت تملك أصولاً أكثر مما يملكه الـ99% الآخرون مجتمعين.

لا شيء من هذا جديد. في الحقيقة، هذه أمورٌ معروفةٌ منذ عام 2010. ومنذ ذلك الوقت يزداد الأغنياء غنىً بشكلٍ متصاعدٍ في حين يزداد الآخرون فقراً. تملك طبقة الأغنياء المتخمين نفوذاً غير عادي، وهي تحوّل هذا النفوذ الاقتصاديّ -بشكلٍ متزايد- إلى سلطةٍ سياسيةٍ تسعى إلى إضعاف الديمقراطية. في بلدانٍ كثيرةٍ يكون الأغنياء هم الحكومة في الحقيقة، أو تكون الحكومة في جيوبهم.

الأمميون الجدد

الأهم مما سبق هو أن هذه الطبقة غنيّةٌ إلى درجة أن أفرادها لم يعد لديهم ما يشتركون فيه مع المواطنين الآخرين لبلدانهم. إنهم يشتركون في الاهتمامات والمعتقدات والنشاطات مع أشخاص من نفس الفئة الثرية التي هم ضمنها، بغضّ النظر عن أصلهم وفصلهم، وبغضّ النظر عن كيفية جمعهم ثرواتهم. وهم يمتلكون بيوتاً في كل أنحاء العالم، وعادةً ما تكون تلك البيوت خارج موطنهم الأم. إنهم يرسلون أطفالهم إلى المدارس نفسها، ويتناولون العشاء في المطاعم الحصريّة نفسها، ويقيمون في الفنادق نفسها. يمتلكون طائراتٍ وقوارب خاصّة. ولديهم قواتٌ أمنيةٌ حصريّة بهم. وتقوم عياداتٌ خاصّةٌ برعاية صحتهم البدنية والنفسية. ولديهم أيضاً مدنٌ -نيويورك، لندن، ميامي، لوس أنجلوس، وغيرها- تلقى أموالهم فيها الترحيب دون أن تُطرح عليهم أسئلةٌ زائدة.

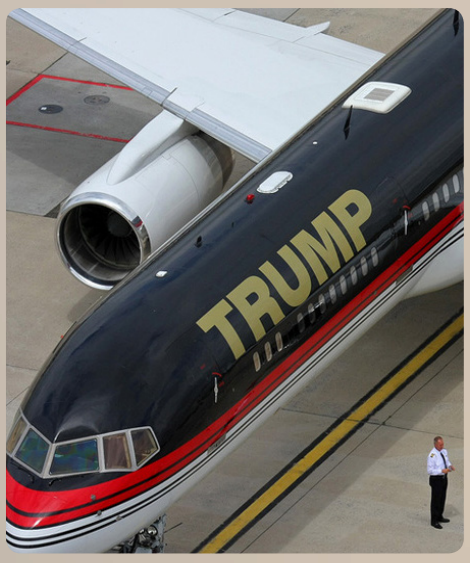

أشخاصٌ عالميون بلا جذور

المنفوخون ثراءً لديهم اهتمامٌ لا يذكر بما يحدث في بلدانهم. وبما أنهم لا يستخدمون أيّ مرافق عامةٍ فمن المنطقيّ -بالنسبة إليهم- أن لا يريدوا دفع أي ضرائب؛ وكثيرون منهم لا يدفعونها. وهم يتلقون المساعدة من لفيفٍ كبيرٍ من الاختصاصيين المهرة لحماية أموالهم من جابي الضرائب. باختصار، أصبح المنفوخون ثراءً في زماننا أمةً لا يجمعها جامعٌ مع الآخرين، أو، بالأحرى، أصبحوا طبقةً تتجاوز الحدود القومية. إنهم «العالميون مقطوعو الجذور» الصادقون.

الأمر الذي يجعل بوتين يسلك هذا المسلك

ترامب وبوتين هما نموذجا الحدّ الأقصى لهذه المجموعة، كلٌّ منهما بطريقته الخاصة. بوتين، على الأرجح، هو أغنى حاكمٍ لصٍّ في العالم، والأقل حياءً بين أقرانه المافيوزيين. لقد حوّل روسيا إلى أول دولةٍ مافيوزيةٍ في العالم لديها سلاحٌ نوويّ. سياسته في زعزعة استقرار الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وإثارة النعرة القومية في روسيا، تمّ تصميمها لهدفٍ واحدٍ في ذهنه؛ إبقاء نفسه وصَحْبه المتخمين ثراءً في السلطة. يزعم بوتين أنه وطنيٌّ روسيّ، لكنه يستنزف أموال روسيا بلا حياء، مفسداً كل مؤسّساتها تقريباً.

ترامب ليس ملياردياً فحسب (مع أنه لا أحد يعرف يقيناً إن كان كذلك، لأنه يميل إلى المغالاة في حجم ثروته)، بل إن طريقته في إدارة الأعمال تُلبّي أيضاً رغبات الأثرياء المتخمين بشكلٍ مباشرٍ لأنّ مبانيه تجذبهم. وعلى عكس صخب شعاراته الدعائية، فإن ترامب لا تهمه أميركا، ولا يعنيه «جعلها عظيمةً من جديد». ودون إطلاق ثورةٍ أميركية -وهو حدثٌ ما زال العالم ينتظره- لا يمكن لأميركا إطلاقاً أن تكون «أعظم» مما هي عليه الآن، سواء بالنسبة إلى ترامب أو من هم على شاكلته.

في الحقيقة، يبدو أن ترامب يكره الولايات المتحدة، بالنظر إلى مقدار اللؤم الذي يهاجم به الأميركيين الآخرين، وبالنظر إلى الطريقة التي يحطّ بها من قدر مؤسّسةٍ أميركيةٍ لها كبرياؤها؛ مؤسّسة الرئاسة. من نافل القول أن ترامب، شأن أيّ فردٍ من أفراد طغمةٍ حاكمة، لم يدفع أيّ ضرائب منذ سنوات. ولاء ترامب ليس لأميركا، وإنما لأمة الأثرياء المتخمين. إن ترامب وبوتين أبناء بلدٍ واحد.

لقد أكّد البعض أنه حالما يتولى ترامب منصب الرئاسة سيضحّي بالمصالح الأميركية لصالح المصالح الروسية. ولكن من الخطأ تبنّي هذا الافتراض، لأنّ بوتين قليل الاكتراث بروسيا بقدر ما أن ترامب قليل الاكتراث بأميركا. الاثنان يأبهان لجعل العالم آمناً لنفسيهما ولجميع أولئك المنفوخين ثراءً. ويليق بهما أن يتبنّيا شعاراً مشتركاً: يا أفراد الطُعم الحاكمة في هذا العالم اتحدوا!

الحرية لأبو الهادي
قائد شبّيحة سلحب

تمرّ على بلدة سلحب، وآل غبارة بالتحديد، أوقاتٌ عصيبةٌ هذه الأيام. إذ وقع رأس دفاعها الوطنيّ ونجم شبّيحتها أبو الهادي، حازم غبارة، في الأسر بعد أن اختطفته جماعةٌ أخرى من شبّيحة صافيتا أو دفاعها الوطنيّ، منذ عشرين يوماً، بكمين.

وفي مقطع مصوّر بثه الخاطفون قبل أيام على شبكة الإنترنت، ظهر أبو الهادي عارياً تقريباً، مكبل اليدين والقدمين، يبكي ويرجو شقيقه أن يفعل كل ما يستطيع لجمع مبلغ الفدية المطلوب لإطلاق سراحه: «أحمد.. ببوس إيدك يا خيي ببوس إيدك.. إلي معك 26 مليون، وفي 10 مليون عند أهلي، وفي 70 ألف [دولار على الأرجح] بالخزنة. بيع دهبات مرتي، والفيلا ارهنها.. بيعها. ببوس إيدك يا خيي تدبر 200 مليون من تحت الأرض». المبلغ كبيرٌ بلا شك، ويكاد يأكل كل ما جناه أبو الهادي من أموال خلال سنوات «الأزمة»، لكن لا بأس، فالمهم ألا يترك أسيراً في هذه الحال: «أمتعذب كل يوم كتير. أبقى بدي شي، بدي إرجع لولادي بس».

لم يبادر شبّيحة صافيتا بالاعتداء، ولم يكونوا سباقين بالخطف، بل أرادوا فقط رد الاعتبار وكسر رأس «هالحيوان، اللي أبيعرف مع مين علقان» حين خطف، قبل أشهر، رجلاً ثقيلاً من صافيتا، وقبض فديته 50 مليون ليرة كما قيل، بل وأجبر أهله -قبل ساعاتٍ من إطلاق سراحه- على توجيه بطاقة شكر «لشباب سلحب» وللدفاع الوطنيّ فيها، و«على رأسهم الأستاذ حازم غبارة أبو الهادي»، لجهوده «في إطلاق سراح السيد إبراهيم..». ربما كان لاعتداء حازم أولاً على «جماعة صافيتا» دورٌ في تخفيف وطأة ما حدث على أشقائه وكظم غيظهم، لكن أن يصوَّر هكذا في هذا الوضع المهين، ثم ينشر المقطع على صفحات الفيسبوك، ليتسلى برؤيته «العلاكين وولاد الحرام» ويشمت به نكرات الناس، فهذا ما لا يطيقه آل غبارة ولا شبّيحة سلحب الذين يهابهم الصغير قبل الكبير في سهل الغاب ومحافظة حماة كلها. وللصبر حدودٌ قد تنتهي بحرق الأخضر واليابس في صافيتا «إذا ما بيطلع خيي حازم خلال 24 ساعة»، كما كتب أحد إخوته في منشور غاضب على الفيسبوك، قبل أن يحذف ما كتب، انصياعاً للعقل وانتظاراً للمفاوضات التي لم تنته بعد مع الخاطفين. وخلال الانتظار يتشارك محبو «أبو الهادي» مقطعاً يجمع صوراً مختلفةً له، في وقفاتٍ شامخةٍ باللباس العسكريّ، وإلى جانب سياراتٍ ودراجاتٍ ناريةٍ حديثة، أو بجانب أسدٍ مضاف ببرنامج الفوتوشوب، أو حاملاً طفله هادي كأبٍ آدميٍّ وحنون. وترفع أغنية «عفوك يا مولاي»، المصاحبة للصور، درجة التأثر بـ«ما خليت لي ولا غالي، عفوك يا مولاي».

في تسجيلٍ مسرّب يقسم قحطان، شقيق حازم، بـ«حق الإمام علي» إنهم يساعدون الفقراء، ولم يؤذوا علوياً، ولا مرشدياً ولا مسيحياً، ويحدد نطاق عملهم بـ«السنّية بس». ويعترف: «خطفنا مسلحين.. خطفنا سنّية»، فـ«السنّية قتلتنا.. هرتنا هري وما ضل ولا علوي».

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

@AynAlmadina
/3aynAlmadina

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

حلب

عدسة ياسمين محمد - خاص عين المدينة